الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعاليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمّة لخضر الوادي
معهد العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين

مطبوعة بيداغوجية في مقياس :

التّصـــــوّف الإسلامي

وفق مقرر السنة الثّالثة عقيدة ومقارنة الأديان

إعداد الدّكتور:
قول معمر

السنة الجامعية: 1442 / 1443 هـ
2022 / 2021

مقدّمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علّم الإنسان البيان وجمّل البيان بالقرآن، والصّلاة والسّلام على من قال الله في حقّه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم / 04، وعلى آله وصحبه الوارثين لأحواله وسنّته وعلى آل بيته الطّاهرين وبعد:

يُعتبر التّصوّف من العلوم التي استوقفتني في مساري التّعليمي خلال سنواتٍ طوال، باعتباره جوهر الإسلام وروحه، وذلك من خلال سِير أهله وحياتهم الحافلة بالأخلاق وأمّهات الفضائل، وتجاربهم الرّوحية التي فاضت بها مواجيدُهم فضاقت العبارة في كثيرٍ من الأحايين أنْ تُترجم ما اختلج في نفوسهم وصدورهم من الحالات التي وجدوها والآلام التي كابدوها، فجاءت عباراتُهم مفعمةً بالمعاني والأسرار ومغلّفةً بالرّموز والإشارات، وكنْتُ دائمًا أتساءلُ عن سرِّ هذه الرّمزية في التّعبير، ووجدتُ نفسي مجذوبًا إلى تلْك المعاني والأسرار، فقرّرتُ أنْ أطّلعَ على أمّهات مصادر التّصوّف الإسلامي، وأسمع من المتصوّفة كلامهم بلسانهم وعباراتهم متجاوزًا تلك الأحكام التي بناها الكثيرُ عن التّصوّف من غير مصادره، لأنّني أدركُ أنَّ التّصوّف الإسلامي باعتباره علمٌ من العلوم رُسمت عنه صُورةٌ نمطيّةٌ خاطئة، وأُحيط بهالةٍ من الشّعوذةِ والشّركِ أحيانا، وبهالةٍ من المباحثِ النّظريّةِ المجرّدةِ التي لا وجود لها في الواقع حتّى أضحى التّصوّف بهذه الصّورةِ السّيِّئة غريبًا وأضحى أهلُه غرباء، وإنّني كلّما ازْددتُ قراءةً لهذا التّراثِ الرّوحي الضّخم ازْدادتْ قناعتي بأنَّ هذا الميراث جزءٌ لا يتجزّأُ منْ روحِ الإسلام وجوهره، وأُدركُ تمامًا أنَّ ما تُعانيه الأمّةُ الإسلاميّة اليوم منْ تراجعٍ وتخلّفٍ إنّما كان بسببِ غيابِ القيمِ والفضائلِ ومكارمِ الأخلاق، فالحديثُ عن التّصوّف الإسلامي اليوم ليس حديثًا عن الفردِ أوْ الخلاصِ الفردي وليس انعزالًا ولا خُلوة، إنّما الحديثُ عن التّصوّف حديثٌ عن الأمّةِ والدّولةِ مُمثّلةً في أفرادها ومؤسّساتها، فإصلاحُ الفردِ وتقويمُ أخلاقه طريقٌ لإصلاحِ الدّولةِ والأمّةِ في عصرٍ أفرزتْ فيه العولمةُ ذوبانًا لكلِّ القيم والثّوابت، انطلاقًا من هذا الأساس أكتبُ عن التّصوّف كتابةَ المؤمنِ بروحانيةِ الإسلام وقيمه السّامية محاولةً منّي لتفعيل وبعث المشروع الرّوحي التّربوي المستنبط من الوحي الشّريف ومن أحوال النّبي ﷺ .

من خلال تجربتي في التّدريس بمعهدنا المبارك وتدريسي لمقياس الأخلاق الإسلاميّة ومقياس التّصوّف الإسلامي أردتُ أنْ أضعَ لطلبتي الكرام هذه المطبوعة لعلّها تُساهم في تقريب صورةِ التّصوّف الإسلامي وتُزيل تلك الصّورةَ القاتمةَ المظلمةَ التي رُسمتْ حوله، وقدْ حاولتُ جهدي أنْ

تكون في غاية الاختصارِ والبساطةِ وابتعدتُ قدرَ الإمكانِ عن التّعقيدِ مُراعيًا في ذلك كلّه مُستوى الطّلبةِ الذين تُقدَّم لهم هذه المطبوعة التي آمل أنْ تُساهمَ في استنهاضِ همّةِ قارئِها في محاولةِ اكتشافِ عالمِ التّصوّف الإسلامي وتوظيفِ الخبراتِ الرّوحيةِ لأهله في واقعنا المعاصر.

وقد اتّبعتُ أثناء عرضي للمادّةِ العلميّةِ البرنامجَ الوزاريَّ مُستعرضًا العناصرَ المفاهيميّةَ المقرّرةَ على الطّلبةِ لتكونَ لهم عونًا في استيعابِ مقياسِ التّصوّف الإسلامي، وقد قسّمتُ هذا العمل إلى خمسةِ مباحث، وتحت كلِّ مبحثٍ ثلاثةُ مطالب، إلا المبحث الثّالث جعلته مطلبين ،تناولتُ في المبحثِ الأوّل مفهومَ التّصوّف ومجالِه وأهمّيتِه، وفي المبحثِ الثّاني تاريخَ التّصوّف وتطوّرِه وتحدّثتُ فيه عن أهمِّ المراحلِ التي عرفها التّصوّف الإسلامي وأشرتُ إلى اتّجاهاتِه الثّلاث، وفي المبحثِ الثّالث تكلّمتُ عن موقعِ النُّقّادِ من التّصوّف وأشرتُ إلى النّقدِ بنوعيه الدّاخلي والخارجي ،وفي المبحثِ الرّابعِ تكلّمتُ فيه عن الطّريقةِ الصُّوفيةِ أسُسها ووظائفها وتحدثّتُ عن ثلاثِ طرقٍ وهي القادريّة والرّفاعيّة والشّاذليّة، من حيث أسُسها وقواعدها التي تقوم عليها، وفي المبحثِ الخامسِ تحدثّتُ عن أصولِ السّيرِ الصّوفي ووسائله، وتحدّثت فيه عن الشّريعة والحقيقة وثنائيّتهما في السّير الصّوفي، ثُمّ أشرتُ إلى المقاماتِ والأحوالِ وبيانِ مفهومِها ودرجاتِها، وذيّلتُ ذلك كلّه بخاتمة خلُصت من خلالها إلى مجموعة من النتائج .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الأستاذ قول معمر

محتوى المادّة:

المبحث الأوّل: التّصوّف مفهومه مجاله وأهمّيته

المطلب الأوّل: مفهوم التّصوّف

المطلب الثّاني: مجاله

المطلب الثّالث: أهميته

المبحث الثّاني: تاريخ التّصوّف وتطوّره

المطلب الأوّل: مرحلة الزهد

المطلب الثّاني: التّصوّف الأخلاقي العملي

المطلب الثّالث: التّصوّف الفلسفي النّظري

المبحث الثّالث: موقف النّقّاد من التّصوّف

المطلب الأوّل: النّقد الدّاخلي للتّصوّف

المطلب الثّاني: النّقد الخارجي

المبحث الرّابع: الطّريقة الصّوفيّة، أسسها ووظائفها

المطلب الأوّل: الطّريقة القادريّة

المطلب الثّاني: الطّريقة الرّفاعيّة

المطلب الثّالث: الطّريقة الشّاذليّة

المبحث الخامس: أصول السّير الصّوفي ووسائله

المطلب الأوّل: ثنائيّة الشّريعة والحقيقة

المطلب الثّاني: المقامات الصّوفيّة

المطلب الثّالث: الأحوال الصّوفيّة

خاتمة

المبحث الأوّل: التّصوّف مفهومه مجاله وأهمّيته

تمهيد:

ممّا تجدرُ الإشارةُ إليه ابتداءً أنّ التّصوّفَ علمٌ من العلومِ التي نشأتْ في الحضارةِ الإسلاميّة، وهو جزءٌ لا يتجزّأُ من علومِ الدّين، وهو ما بيّنهُ أساطينُ التّصوّف، فقال صاحبُ اللّمعِ في جوابِه عن سؤالٍ وُجّه إليه مفادُه بيانَ حقيقةِ علمِ التّصوّفِ ومذهبِ الصّوفيّة، وبيّن أنّ العلومَ المتداولةَ بين العلماء لا تخرج عن ثلاثٍ: آياتٍ من كتابِ الله عزّ وجل، أو خبرٍ عن رسولِ الله ﷺ، أو حكمةٍ مُستنبطةٍ ظهرتْ على قلبِ وليٍّ من أولياءِ الله[1].

وهو الأمرُ الذي ذكرهُ ابن خلدون عند حديثه عن العلومِ المختلفةِ التي نشأتْ في الحضارةِ الإسلاميّة، وعدَّ التّصوّفَ منها فقال: "هذا العلمُ من علومِ الشّريعةِ الحادثةِ في الملّة ..."[2].

والتّأكيد على عِلميّةِ التّصوّفِ استصحابٌ للمنهجِ والموضوعِ كما هو معروفٌ في كلِّ علمٍ وفن، إذْ لابُدَّ لقارئِ علومِ القومِ من الوُقوفِ على منهجهم الذي ارتضوْهُ وفهمِ العباراتِ والمصطلحاتِ على مرادِ أهلها، فطريقُ التّصوّفِ وعرةٌ وهو ما جعل المستشرقة الألمانية الكبيرة أنيماري شيمل تؤكّدُ على وعورةِ هذا المسلكِ من حيثُ قراءتِه وفهمِ مصطلحاتِه، فتقولُ في مقدّمةِ كتابِها الأبعاد الصّوفيّة في الإسلام: "الكتابة عن الصّوفيّة (sufismus) أو الرّوحانيّات (mystik) في الإسلام تكادُ تكونُ مستحيلة، فمن أوّل خطوةٍ يخطُوها سالكُ هذا الطّريقِ يرى أمامَه تِلالًا ممتدّةً وهضابًا وعرة، لا يزدادُ بالسّير فيها إلّا استصعابًا للوصولِ إلى أيّ غاية"[3].

وهذه التّلالُ والهضابُ الوعرةُ كنايةٌ عن صعوبةِ البحثِ في مجالِ التّصوّفِ لخصوصيّةِ اصطلاحاتِه من جهة، وخصوصيّةِ التّجربةِ الصّوفيّةِ من جهةٍ أخرى القائمة على الذّوقِ والمكابدة، فلا يُمكن إدراكَ حقيقةِ التّجربةِ الصّوفيّةِ إلّا بتجربةٍ مماثلةٍ جوّانيّة، وهو ما صعّبَ البحثَ في التّجربةِ الصّوفيّة، وهو ما صرّحَ به الغزالي في كتابِه المُنْقِذُ من الضّلال، فبَعْدَ قراءتِه ما ألّفهُ أساطينُ التّصوّفِ الإسلامي توصّلَ

---

[1] اللّمع، أبو نصر السّرّاج الطّوسي، تح: عبد الحليم محمود + طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر + مكتبة المثنى ببغداد، ط 1960، ص23.

[2] مقدّمة ابن خلدون، ابن خلدون، تح: عبد الله محمّد الدّويش، دار البلخي+ مكتبة الهداية، دمشق، ط 01 ،2004، ج 02، ص 225.

[3] الأبعاد الصّوفيّة في الإسلام وتاريخ التصوف، آنا ماري شيمل، ترجمة: محمّد إسماعيل السّيّد + رضا حامد قطب، منشورات الجمل، بغداد ط 01 ، 2006، ص05.

إلى نتيجةٍ مفادُها أنّهُ لا يمكنُ إدراكهُ – التّصوّف – إلّا بالتّعلّمِ والذّوْقِ والحالِ، فأدركَ بعد تجربةٍ أنّهم أرباب أحوالٍ لا أرباب أقوال، وعَلِمَ أنّ أخلاقَهم أزكى الأخلاقِ وسيرتَهم أحسنَ السّير، وقد سار الغزالي في طريقِهم وأخذَ نفسَه بالرّياضةِ والمجاهدةِ مُدّةً طويلةً حتّى انكشفتْ له[1] في خلواتِه أمورٌ لا يمكنُ حصرها، وانتهى به هذا إلى اليقين، وأدركَ أنّ المعرفةَ الحق هي ما كان عن طريقِ الكشف، ويعلّقُ الغزالي على طريقةِ القومِ بقوله: "... إنّ جميعَ حركاتهم وسكناتهم في ظاهرِهم وباطنِهم مقتبسةٌ من نورِ مشكاةِ النُّبوّةِ وليس وراء نورِ النُّبوّةِ على وجه الأرض نورٌ يُستضاءُ به"[2].

المطلب الأوّل: مفهومه

أوّلًا: الاشتقاق اللّغوي:

تُعتبرُ كلمةُ التّصوّف مُصطلحًا خصبًا حاولَ الباحثون أنْ يرجعوا الكلمةَ إلى أصولٍ مختلفةٍ، وسنحاولُ عرضَ هذه الأقوالِ ومناقشتها والتّرجيح بينها وفق ما انتهى إليه أساطين التّصوّف:

1- التّصوّف نسبةً إلى أهل الصّفة:

والمرادُ بأهلِ الصّفةِ فُقراء المهاجرين الذين كان يؤْثرهم النّبي ﷺ، وفي الصّحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه خاطبه النّبي ﷺ قائلا: « الحق أهل الصّفة فادعهم لي قال: وأهل الصّفة أضيافُ الإسلامِ لا يأوُون إلى أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحدٍ إذا أتتْهُ صدقةٌ بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتتْهُ هديّةٌ أرسلَ إليهم وأصابَ منهم وأشركَهم فيه» "[3].

قال الكلاباذي في شأنِ أهلِ الصّفة: "إنّهم كانُوا غرباءَ فقراءَ مهاجرين أُخرجوا من ديارِهم وأموالهم..."[4]، وجاءَ في البحرِ المديدِ في تفسيرِ قولِه تعالى:﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ...﴾ البقرة، الآية/ 273.

قال: "وهم أهلُ الصّفة كانُوا نحوا من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنُون صفة المسجدِ يستغرقونَ أوقاتَهم في العلمِ والذِّكرِ والعبادةِ وكانُوا يخرجون في كلِّ سريَّةٍ بعثها رسولُ الله ﷺ" [1].

---

[1] الكشف: " بيان ما يُستتر على الفهم فيُكشف عنه للعبد كأنّه رأي عين" انظر: موسوعة مصطلحات التّصوّف الإسلامي، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 01، 1999 م. مادة كشف، ص 790.

[2] المنقذ من الضّلال والموصل إلى ذي العزّة والجلال، أبو حامد الغزالي، قدم له: علي ملحم، دار ومكتبة الهلال، ط1 ،1993، ص05.

[3] أخرجه البخاري عن أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النّبي – صلّى الله عليه وسلّم–، رقم: 645.

[4] التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف، الكلاباذي، تصحيح: آرثر جون آربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ، ص 06.

وقد ذكر الهجْويري في كتابِه كشف المحجوب خبرَ أهلِ الصّفةِ في البابِ الثّاني، عند حديثه عن مقامِ الفقرِ وبيانِ صفاتِهم كالإقامةِ في المسجدِ وصُحبة النّبي ﷺ وتركِ الاعتراضِ والمعارضةِ والتّوكّلِ على الله، وفيهم نزلت بعضُ الآيات منها قوله تعالى: ﴿ ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدّنيا ﴾ سورة الكهف/ 28. وكان الرّسولُ ﷺ إذا التقى بأحدِهم قال: بأبي وأمّي أولئك الذين عاتبني الله فيهم[2]، ويخصّصُ الهجْويري البابَ التّاسعَ من كتابِه لذكرِ أعلامِ أهلِ الصّفةِ وأخبارِهم ويذكرُ عددًا كبيرًا منهم، ونجدُ كبارَ الصّحابةِ ضمنهم ومنهم سلمان الفارسي، أبو عبيدة بن الجرّاح، عمّار بن ياسر وابن مسعود وغيرهم[3].

ممّا يستنتجُ أنَّ الأخذَ بهذا الاشتقاقِ محاولةٌ من أساطينِ التّصوّفِ في محاولةِ إيجادِ جذورٍ معرفيّةٍ وتاريخيّةٍ للتّصوّفِ بربطِه بعصرِ النّبوّة وأحوالِ الصّحابةِ وما كانُوا عليه من زهادةٍ وعبادةٍ وتواضعٍ وفقر، كلّها ملامحٌ ومعالمٌ يُبنى عليها التّصوّفُ الإسلامي فيما بعد.

2- التّصوّف من الصّفا:

قيلَ أنَّ الصّوفيّةَ سُمّوا كذلك لصفاءِ أسرارِهم ونقاءِ آثارِهم وفي هذا المعنى يقولُ بشر الحافي: الصّوفيُّ من صفا قلبُه لله، وقيلَ الصّوفيُّ من صفتْ معاملتُه[4].

وقال الهجْويري في هذا المعنى: "والصّفاءُ في الجملةِ محمودٌ لقوله ﷺ: « ذهبَ صفوُ الدُّنيا وبقيَ كدرُها» "[5]، أمّا أصلُه فهو انقطاعُ القلبِ عن الأغيارِ وخلوِّ اليدِ من الدُّنيا "[6]، وهذا المعنى عبّر عنه أبو الفتح البستي شعرًا في قوله:

تنـازع النّاس في الصّوفي واختلفوا قدما وظنّوه مشتقّا من الصّوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفي حتى لقّب الصّوفي

---

[1] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة الحسني، تح: أحمد عبد الله القرشي رسلان، ط حسن عباس زكي، القاهرة، 1419هـ، ج01، ص306

[2] كشف المحجوب، للهجويري، دراسة وترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل، مكتبة الاسكندرية، ط 1974، ص 215 وما بعدها.

[3] المصدر نفسه، ص 285 وما بعدها بتصرّف.

[4] أنظر: التّعرف لمذهب أهل التّصوّف، ص 05.

[5] أخرجه الطّبراني عن ابن مسعود بلفظ "ذهب صفو الدّنيا ولم يبق إلّا الكدر والموت اليوم تحفة لكلّ مسلم". انظر: مجمّع الزّوائد ومنبع الفوائد، ابن حجر الهيثمي، مكتبة القدسي، القاهرة، ط 1994، ج 10، ص 309.

[6] انظر: كشف المحجوب، ص 227 وما بعدها.

3- نسبةً إلى الصّفِّ الأوّل:

يقول الكلاباذي في هذا السّياق: "وقال قومٌ إنّما سُمّوا صوفيّة لأنّهم في الصّفِّ الأوّلِ بين يدي الله عزّ وجل، بارتفاع هِمَمِهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفِهم بسرائرِهم بين يديه "[1].

وكونُهم في الصّفِّ الأوّلِ منصرفٌ إلى قلوبهم وليس إلى أجسادِهم وصورِهم، وهذا المعنى يشرحُه قول أبي الحسن النّوري: "الصّوفيّةُ هم الذين صفتْ أرواحُهم فصارُوا في الصّفِّ الأوّلِ بين يدي الحق" [2]، ويعلِّقُ الهجْويري على هذا القولِ مبيّنًا أنّهم قومٌ خلصُوا من الهوى حتى استقرُّوا في الصّفِّ الأوّلِ والدّرجةِ الأعلى مع الحق [3].

وعلى هذا الأساسِ فالتّقدُّمُ من القومِ بالمسارعةِ إلى الخيراتِ والمسابقةِ إليها، وهو متوافقٌ مع ما جاء في القرآنِ الكريمِ في معرضِ المدح ﴿ إنّهم كانُوا يسارعُون في الخيراتِ ويدعُوننا رغبا ورهبا﴾ الأنبياء /90.

04- نسبة إلى صوفة (الغوثُ بن مرّ):

يذكرُ الطّوسي في اللّمعِ أمْرَ هذا الرّجلِ دون أنْ يُصرِّح باسمه، وأنّ مكّةَ قبل الإسلامِ خلت، وكان يجيء من بلدٍ بعيدٍ رجلٌ صوفيٌّ فيطوفُ بالبيتِ وينصرف، وإنْ كان ذلك صحيحًا فإنّه يدلُّ على أنَّ الاسم صوفي عُرِف قبل الإسلامِ ونُسبَ إليه أهلُ الفضلِ والصّلاح [4].

ونجدُ ابنَ الجوزي في كتابِه تلبيس إبليس يصرّحُ باسمِ هذا الرّجل، وكونه أوّل من انفردَ بخدمةِ الله عند بيتِه الحرام، واسمُه الغوثُ بن مرّ، فانتسبُوا إليه لمشابهتِهم إيّاه في الانقطاعِ إلى الله، وسُمّوا بالصّوفيّة، ويعلّلُ ابنُ الجوزي سببَ تسميةِ هذا الرّجلِ بهذا الاسمِ في حديثٍ يطولُ ذكره [5].

وباستقراء نصِّ الطّوسي وابن الجوزي يظهرُ الضّعفُ في قبولِ هذه الرّواية لأنّهما لمْ يجزما بصحّتِها، وهذا ما دفعَ كبير الباحثين في الشّأْنِ الصّوفي علي سامي النّشّار –رحمه الله- بمناقشة هذه النّسبة

---

[1] التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف، ص 05.

[2] كشف المحجوب، ص 322.

[3] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[4] اللمع ،الطوسي، ص 42-43 بتصرف.

[5] انظر:تلبيس إبليس،ابن الجوزي،دار الفكر للطباعة والنشر،بيروت،لبنان،ط2001،01،ص 145-146 بتصرف.

ويعلِّقُ عليه بقوله: "ولكن إذا كان الإسلامُ قد لحِقَ ببني صوفة وعرفَ المؤرّخون اسمَ شيخِ هذا البطنِ الذي لحقَ به الإسلامُ فأيْن ذهبَ البطنُ بعد ذلك، هلْ تمزّقَ بنُو صوفة شذر مذر وعفا عليهم التّاريخ ؟؟..." [1].

05- نسبة إلى سوف اليونانيّة:

ذكرَ هذا الرّأي أبُو الرّيحانِ البيْروني في حديثِه عن حكماءِ اليونانِ وأطلقَ عليهم السّوفية، وهم الحكماء، لأنَّ كلمةَ سوف باليونانيّة تعني الحكمة، والفيلسوفُ يُسمَّى: "بيلا سوبا" أيْ محبّ الحكمة، ولما ذهبَ في الإسلامِ قومٌ إلى قريبٍ من رأيهِم سمُّوا بأسمائِهم [2]، ويقارنُ البيروني في كتابِه بيْن حكماءِ الهنودِ والصّوفيّةِ مبرزًا بعضَ مَواطنِ التّشابُه ،وهذا الأمرُ لا يخلُو من خطرٍ كبيرٍ من النّاحيةِ المعرفيّة، إذْ ذهب كثيرٌ من المستشرقِين الذين كتبُوا في اشتقاقِ كلمةِ التّصوّفِ محُاولين إرجاعَها إلى مصادرَ أجنبيّةٍ كالمسيحيّةِ واليهوديّةِ وحكمةِ اليهودِ والبوذيّة، وهو ما سنُشيرُ إليه بعد وقوفِنا على المعنى الاصطلاحي لكلمةِ التّصوّف.

06- نسبة إلى الصّوف:

تُقدّم لنا المصادرُ الأولى للتّصوّفِ وجهَ هذهِ النّسبة، فيُوردُ لنا الطّوسي في اللّمعِ في سياقِ سؤالٍ وجوابِه: "إنْ سألَ سائلٌ فقال: قد نسبتُ أصحابَ الحديثِ إلى الحديثِ ونسبتُ الفقهاءَ إلى الفقه، فلِمَ قلتَ الصّوفيّة ولمْ تنسبْهم إلى حالٍ ولا إلى علمٍ ... نسبتَهم إلى ظاهرِ اللّبسة لأنَّ لبسةَ الصّوفِ دأبُ الأنبياء- عليهم السّلام - وشعارُ الأولياءِ والأصْفياء..." [3].

ويُعلِّل لنا الكلاباذي وجهَ هذهِ التّسميةِ قائلا:"... وأمّا من نسبَهم إلى الصّفةِ أو الصّوفِ فإنّه عبّر عن ظاهرِ أحوالهم، وذلك أنّهم قومٌ قد تركُوا الدُّنيا فخرجُوا عن الأوطانِ وهجرُوا الأخدان وساحُوا في البلاد وأجاعُوا الأكباد وأعروا الأجساد..."[4].

وإنْ كانت النّسبةُ إلى الصّوفِ صحيحةٌ كما بيّن ذلك القشيري، فيُقال تصوّف إذا لبِس الصّوف، كما يقال تقمّص إذا

لبِس القميص، لكن القومَ لمْ يختصُّوا بلبسِ الصّوفِ دُونَ غيرِهم [1]، وممّن يقولُ بصحّةِ هذه النّسبةِ ابنُ ابنُ خلدون في مقدّمتِه لأنّهم في الغالبِ مُختصّون بلبسِه لما كانُوا عليه من مخالفةِ النّاسِ في لبسِ فاخرِ

---

[1] نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار،ط دار المعارف،مصر، بدون تاريخ، ج03،ص 41.

[2] تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة،أبو الريحان البيروني، عالم الكتب، بيروت، ط02، 1403، ص27.

[3] اللمع،الطوسي،ص40.

[4] التعرف لمذهب أهل التصوف،ص 05.

الثّياب [2]، وهذه النّسبةُ مالَ إليها المستشرقُ نولدكه في مقالٍ نشرَه عام 1894م مُبيِّنًا أنَّ الكلمةَ مشتقَّةٌ من الصّوف، وكانت موضوعة لزهادِ المسلمينَ الذين تشبَّهُوا برهبانِ النَّصارى في ارتدائِهم غليظَ الصّوفِ دليلاً على ندمِهم...[3].

هذه أبرزُ الأقوالِ في أصلِ كلمةِ تصوّف من ناحيةِ الاشتقاقِ اللُّغوي، وهي في مُجملِها لا تخرجُ عن أمْرين:

– أوّلهما: إرجاعُ الكلمةِ إلى أصلٍ أجنبيٍّ كما ذهبَ إلى ذلك أبُو الرّيحان البيروني، وبنى على قولِه هذا بعضُ المستشرقِين، **وثانيهما:** تحليلُ الكلمةِ داخلَ المعجمِ اللّغوي العربي، وإنْ كان الاشتقاقُ يخالفُ ذلك، لذا نجدُ أكبرَ أساطين التّصوّفِ وهو الإمامُ القشيري يتفطّنُ لهذا الإشكال، ويدفعُه بأسلوبٍ يُنبئُ بذلك بقوله: "وليس يشهدُ لهذا الاسمِ من حيثُ العربيّة قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنّه كاللّقب..."[4].

وهو الرّأيُ ذهبَ إليه عبدُ الواحد فيما نقله عنه الشّيخُ عبد الحليم محمود مترجمًا عنه:" أمّا أصلُ هذه الكلمة – صوفي– فقد اختلفَ فيه اختلافًا كبيرا، ووضعت فروض متعدّدة، وليس بعضها بأولى من بعض، وكلُّها غيرُ مقبولة، إنّها في الحقيقة تسميةٌ رمزيّة..." [5].

وإنْ كان الغموضُ قد ألقى بظلالِه على اشتقاقِ الكلمةِ وأصلِها في اللّغةِ فلعلَّ في المعنى الاصطلاحي ما يورث بردِّ اليقين، ويجعلنا نقتربُ من مدلولِ التّصوّفِ ومعناه وحقيقتِه التي لأجلِها وُضع.

ثانيا: المعنى الاصطلاحي

لوْ جُمعتْ الأقوالُ التي قِيلتْ في معنى التّصوّفِ لأضفنا إلى المكتبةِ الإسلاميّةِ كتابًا جديدا، إذْ تطالعنا كتبُ التّصوّفِ ومصادرُه الأصليّة كالتّعرّف والرّسالة القشيريّة واللّمع وكشف المحجوب بأقوالٍ عديدةٍ في مفهومِ التّصوّف، ممّا جعل الشّيخَ زرّوق الفاسي البرنسي (899 هـ) يعبّرُ عن هذا التّعدّدِ

---

[1] الرسالة القشيرية،ص 312.

[2] المقدمة، ابن خلدون،ج02،ص 225.

[3] نقلا عن المستشرق رينولد نيكلسون،الصوفية في الاسلام ، ترجمة:نورالدين شريبة،مكتبة الخانجي بالقاهرة،ط02، 2002،ص 11-12 بتصرف.

[4] الرسالة القشيرية،ص 312.

[5] نقلا عن عبد الحليم محمود،قضية التصوف،المدرسة الشاذلية، دار المعارف،مصر، ط03، بدون تاريخ، ص 350.

في كتابه قواعد التّصوّف في القاعدة 02 قائلا: "وقد حُدّ التّصوّف ورسم وفسّر بوجوهٍ تبلغُ الألفين مرجعها كلّها لصدقِ التّوجّهِ إلى الله تعالى، وإنّما هي وجوه فيه والله أعلم "[1].

مدخل منهجي :

قبل أنْ نعرضَ الأقوالَ التي قِيلتْ في حدِّ التّصوّفِ ونقومُ بمناقشتِها وتحليلِها نطرحُ تساؤلاً منهجيًّا مُهمًّا مفاده: لِمَ تعددّتْ تعاريفُ التّصوّفِ إلى هذا الحدّ ؟

يقدِّمُ لنا أبُو الوفا الغنيمي التّفتزاني تعليلاً لهذا التّعدّدِ بإرجاعِ ذلك إلى الظّروفِ المختلفةِ التي مرَّ بها التّصوّف، لذا كثُرت تعاريفُه حسبَ كلِّ مرحلة [2]، لكن هذا التّعليل نسبي لا يُشفي الغليل، لأنّنا نجدُ متصوّفةً عاشُوا في بيئةٍ واحدةٍ وعصرٍ واحدٍ واختلفتْ تعابيرُهم وفهومهم، ممّا يجعلُنا نبحثُ بعمقٍ داخل آراءِ الباحثين والدّارسين وداخل تعاريفِ التّصوّفِ نفسها، والمؤشّرُ الأوّلُ الذي نتمسّكُ به في التّعليلِ هو رمزيّةُ التّعبيرِ التي اعتمدَها المتصوّفةُ ممّا يحيلُنا على مُعجمٍ خاصٍّ يفسّرُ لنا دلالةَ التّعابيرِ والمصطلحاتِ في أصلِ وضعِها عندَ القوم.

ونجدُ جوابًا لهذا التّساؤلِ عندَ أحدِ أساطين التّصوّفِ وهو القشيري في رسالته، فقال في عبارةٍ دقيقة: "وتكلّم النّاس في التّصوّف ما معناه ؟ وفي الصّوفي من هو ؟ فكلٌّ عبّر بما وقع له ..."[3].

وفي قوله "فكلٌّ عبّر بما وقع له" إشارةٌ إلى الحال[4] التي يكونُ عليها الصّوفي عند نطقه بالعبارة، والأحوالُ مختلفةٌ من شخصٍ لآخر باختلافِ النّفوس، وعلى هذا فالتّصوّفُ تجربةٌ ذاتيّةٌ جوّانيّة يعيشُها السّالكُ أو المريدُ، وهو ما يُعبّر عنه بالذّوقِ وهو أوّلُ درجاتِ العارفِ وهو وجدان لذّة الحقيقة، وهو الأمر الذي أكدَّ عليه الباحثُ عبد الوهاب فرحات في حديثِه عن الرّمزيّةِ والتّعبيرِ وكون التّصوّفِ حالات وجدانيّة يصعبُ التّعبير عنها بألفاظِ اللُّغةِ وكونها أمرًا غير مشتركٍ بينَ النّاس[5]، ومادام التّصوّفُ علمًا ذوقيًّا خرجَ بكونِه يقومُ على البرهان، وهو الأمرُ الذي أكّدَ عليه الشّيخُ الأكبر مُحي الدّين بنُ عربي في جوابِه عن سؤالٍ من طرفِ تلاميذِه حولَ منهجِ التّصوّفِ وطريقِ المعرفةِ فيه وضرب له مثالاً بحلاوة العسل، إذْ لا يمكننا البرهنة على حلاوتِه بالحسِّ والعقل، بل السّبيلُ الوحيدُ لذلك هو

---

[1] قواعد التصوف،زروق الفاسي،تح:عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية،بيروت ،لبنان،ط2005،02،ص 21.

[2] انظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي،أبو الوفا الغنيمي التفتزاني،دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط03، بدون تاريخ، ص11.

[3] الرسالة القشيرية،ص 312.

[4] سنتكلم عن حقيقته لاحقا عند حديثنا عن المقامات والأحوال.

[5] انظر:مطبوعة علم التصوف،الدكتور عبد الوهاب فرحات، جامعة الأمير عبد القادر، السنة الجامعية 2009/2008، ص08 بتصرف.

أنْ نتذوّقَه ، لذا كان الذّوقُ أساسًا مُهمًّا في المعرفةِ عند أهلِ التّصوّف، ومن هُنا نجدُ أنَّ التّصوّفَ تجربةٌ جوّانيّةٌ باطنيّةٌ ومعاناةٌ يُعانيها الصُّوفي [1].

وعلى هذا يأْتي التّأكيدُ على خصوصيّةِ المصطلحِ الصُّوفي، واعتبار مصطلحه مدخلاً إلى موضوعِه ومنهجِه معا، لأنّنا لا نستطيعُ القراءةَ الصّحيحةَ لأيِّ علمٍ إلاَّ من خلالِ لُغته، لذا يرى الأستاذُ الباحثُ محمّد بن بريكة أنَّ أحدَ مفاتيحِ الإلمامِ بلغةِ التّصوّفِ وقراءتِه يكونُ بطريقين: إمّا الدّخولُ فيه بتجربةٍ جوّانيّةٍ لمعانقةِ الحقيقةِ الذّوقيّة، وإمّا بتحرِّي الحقيقةِ بعقلٍ موضوعيٍّ قدرَ المستطاع [2].

لكن في رأيي أنَّ الطَّريقَ الثّاني الذي قدّمَه الباحثُ يجعلُنا عالمين بالتّصوّفِ عارفِين بحقيقتِه لكنّنا لسنا متحقّقِين به، وهذا أشبهُ بمن يستطيعُ وصفَ الدّاءِ والدّواءِ لكنّه لا يدري عن الألمِ والمعاناةِ شيئا.

ويقدّمُ لنا الشّيخُ زرّوق الفاسي في قواعده في القاعدة 03 أحدَ المفاتيحِ المهمّةِ للإجابةِ عن التّساؤلِ السّابقِ المتعلّقِ بتعدُّدِ تعاريفِ التّصوّفِ عند أهله بقوله: "والاختلافُ في الحقيقةِ الواحدةِ – إنْ كثر– دلَّ على بعدِ إدراكِ جملتِها، ثُمَّ هو إنْ رجع لأصلٍ واحد يتضمّنُ جملةَ ما قيل فيها كانت العبارة عنه بحسب ما فهم منه علمًا أو عملاً أو حالاً أو ذوقًا أو غير ذلك، والاختلاف في التّصوّف من ذلك..." [3].

–أبرز التّعاريف:

أوردَ أساطينُ التّصوّفِ في تعريفِه وحدِّه أقوالا، سنحاولُ أنْ نختارَ منها ما يقرّبُ المعنى الذي لأجلِه وُضع مع نسبةِ كلِّ قولٍ إلى قائلِه ومناقشةِ التّعريف [4]:

1– قال معروف الكرخي: التّصوّفُ الأخذُ بالحقائق واليأس ممّا في أيدي الخلائق.

وهذا التّعريفُ تضمّنَ طلب الحقيقةِ التي هي معرفةُ الله سبحانه وتعالى عن طريقِ أسمائِه وصفاتِه والتّحقُّق بمعانيها السّامية، وتضمّنَ الدّعوةَ إلى الزّهدِ فيما هو في أيدي النّاس، وإنْ كان التّصوّفُ أعلى مرتبة من الزّهد، فالزّهدُ مقامٌ فيه ومرتبة.

---

[1] انظر: التصوف الاسلامي الطريق والرجال، فيصل بدير عون،مكتبة سعيد رأفت،جامعة عين شمس، ط1983ض، ص10 بتصرف.

[2] انظر: التصوف الاسلامي من الرمز الى العرفان،محمد بن بريكة،دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، ط01، 2006،ص 23 وما بعدها بتصرّف.

[3] قواعد التصوف، ص 21–22.

[4] انظر هذه التعاريف السبعة في كل من :الرسالة القشيرية ،ص 311 وما بعدها،وانظر:التعرف للكلاباذي،ص 09 وما بعدها بتصرف، وانظر:اللمع للطوسي، ص 45 وما بعدها بتصرف .وانظر: كشف المحجوب، ص 231 وما بعدها بتصرف.

2- سمنون المحب: التّصوّف ألاّ تملكَ شيئًا ولا يملكُك شيء.

والملكُ هُنا المقصود هو ملكُ القلوبِ ملك الأيدي، وهو إشارةٌ إلى تركِ تعلّقِ القلبِ بالدُّنيا، فلا مانعَ أنْ يكونَ الصُّوفي غنيّا، وهو حالُ كبارِ الصّحابةِ كعثمان بنُ عفّان وعبدُ الرّحمنِ بنُ عوف، ومن التّابعين عبدُ الله بنُ المبارك، بلْ نجدُ أكبرَ مؤسّسِي الطُّرقِ الصّوفيّةِ في القرن 07 هـ ، وهو الإمامُ أبو الحسن الشّاذلي، الذي تُنسبُ إليه الشّاذليّة كان غنيا.

3- محمد بن علي القصّاب: التّصوّفُ أخلاقٌ كريمةٌ ظهرتْ في زمانٍ كريمٍ من رجلٍ كريمٍ مع قومٍ كرام.

وهذا التّعريفُ يشيرُ إلى أحوالِ النّبي ﷺ وسيرتِه العطرةِ وصحبِه الكرام، إذْ كانتْ أحوالُه وأحوالُ أصحابِه بذْرةَ هذا العلم .

4- عمرو بنُ عثمان المكي: التّصوّفُ أنْ يكونَ العبدُ في كلِّ وقتٍ بما هو أوْلى به في الوقت.

وهذا القول يشيرُ إلى دوامِ الصِّلةِ بالله عزَّ وجل، فصلةُ العبدِ أوْلى من كلِّ شأنٍ وحاجة، وهذا هو معنى قولهم " الصُّوفي ابنُ وقتِه ".

5- الجنيد البغدادي: التّصوّفُ أنْ تكونَ مع الله بلا علاقة.

وهذا القولُ دعوةٌ إلى قطعِ الأسبابِ والنّظرِ إلى المسبِّب، ومن ذلك تركُ النِّعمةِ والنّظرُ إلى المنعم، وهذا قمّةُ التّوحيدِ والإيمان، رغم أنَّ الأخذَ بالأسبابِ لا يقدحُ في توكّلِ الإنسانِ واعتمادِه على ربِّه.

6- الكتّاني: التّصوّفُ خلقٌ فمن زادَ عليْك في الخلقِ زاد عليْك في الصّفاء.

وهذا التّعريفُ أبسطُ التّعاريفِ وأوضحِها عبارةً، يثبتُ من خلالِه الجانبُ العمليُّ والتّربويُّ للتّصوّف، من كونِه مراعاةٌ لحقوقِ الله وحقوقِ عبادِه، وهو ما يؤكّده مصطلح "خُلق"، وهو تأكيدٌ على أصالةِ التّصوّفِ وضرورتِه باعتبارِه مسلكًا للتّزكيةِ والتّربيةِ ودستورًا لمكارمِ الأخلاقِ وأمّهاتِ الفضائلِ بطريقِ التّحليةِ والتّخليةِ والتّصفية، أيْ بتخليةِ النّفسِ من الرّذائلِ وتحليتِها بالفضائلِ حتّى تصفُو مرآتها وتغدُو انعكاسًا لتجلّيات أسماءِ الله الحسنى وصفاتِه العُلى.

7- أبو بكر الشبلي: التّصوّفُ الجلوسُ مع الله بلا همٍّ [1].

[1] انظر هذه التعاريف السبعة في كل من :الرسالة القشيرية ،ص 311 وما بعدها،وانظر:التعرف للكلاباذي،ص 09 وما بعدها بتصرف، وانظر:اللمع للطوسي، ص 45 وما بعدها بتصرف .وانظر: كشف المحجوب، ص 231 وما بعدها بتصرف.

والجلوسُ مع الله على بساطِ الأدبِ والعبوديّةِ والإيمانِ هو ثمرةٌ لليقينِ به، فمن مُلئ قلبُه يقينًا زال همّه، فالتّصوّفُ على هذا المعنى هو اليقينُ بالله

خلاصة التّعاريف:

بعد عرضِنا لبعضِ وأهمِّ التّعاريفِ التي قِيلتْ في معنى التّصوّفِ يتّضحُ لنا ما يلي:

1/ أنّها تتراوحُ بين البُعدِ الأخلاقي التّربوي من خلالِ تعريفِ كلٍّ من محمّد بن علي القصّاب والكتّاني، أو إشارةٌ إلى الزّهدِ بنزعِ الملكيّةِ من القلبِ بتركِ التّعلّقِ بالدُّنيا وهو ما تضمَّنه تعريفُ معروف الكرخي وسمنون المحب، أو هو التّجريدُ بتركِ الأسبابِ والنّظرُ إلى المسبِّبِ كما تضمَّنه تعريفُ سيّد الطّائفة الإمام الجنيد، أو هو المعرفةُ من حيثُ تعلّقها بأسماءِ الله وصفاتِه وهو ما تضمّنه الشّطرُ الأوّلُ من تعريفِ معروف الكرخي " الأخذ بالحقائق ".

2/ أصالةُ هذهِ التَعاريفِ باستمدادِها من الوحيِ ممثّلاً في الآياتِ والأحاديثِ الدّاعيةِ إلى مكارمِ الأخلاق، وكذا أحوالِ النّبي ﷺ وكفاهُ فخرًا أنْ وصفَه ربّه ومدحَه قائلاً: ﴿وإنّك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم﴾ القلم/04.

3/ تمثّلُ هذهِ التّعاريف وتجسّدُ التّصوّف السُّني الذي يستمدُّ أصولَه من الوحي، وهو ما يؤكّده أساطينُ التّصوّفِ أنفسهم على هذا المسلك، فهذا الجنيد سيّدُ الطّائفة يقول: "الطّريقُ كلُّها مسدودةٌ على الخلق إلاَّ على من اقتفى أثرَ الرّسولِ ﷺ، وقوله أيضا: "من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأنّ علمنا هذا مقيّد بالكتاب والسنّة" [1].

4/ ضرورةُ الرّجوعِ إلى المصادر الأولى للتّصوّفِ الإسلامي التي أرّخت لأقوالِ أساطينِه ومؤسّسيه، لأنَّ قراءةَّ التّصوّفِ خارجَ دائرةِ أهلِه ومؤسّسيه خطأٌ منهجيٌّ جسيمٌ يوقعُ صاحبَه في الخطأ قراءةً وحكمًا، لذا افتتح الشّيخُ زرّوق كتابَه قواعد التّصوّف: القاعدة01: "الكلام في الشّيء فرع تصور ماهيته"[2]، وفي العودةِ إلى هذه المصادرِ جزءٌ من الرّؤيةِ الموضوعيّةِ والقراءةِ الهادفةِ التي تسعى للبناءِ والتّأسيسِ وليس هدفُها الإقصاءُ والهدمُ بدعوى وجودِ أقوالٍ هنا وهناك تحتاجُ إلى توثيقٍ وتحقيقٍ وغربلة.

5/ تطوّرُ التّصوّفِ الإسلامي، وهو ما يتجلّى في المصنّفاتِ التي عرفَها التّصوّفُ الإسلامي عبر مساراته ومباحثها المعرفيّة التي تقتربُ من الدّرسِ الفلسفِي النّظرِي.

---

[1] الرسالة القشيرية،ص 50-51.

[2] قواعد التصوّف،ص 21.

المطلب الثّاني: مجاله

أحكام الشّريعة الإسلاميّة بين الفقه والتّصوّف:

التّصوّفُ علمٌ من العلومِ التي نشأتْ في الحضارةِ الإسلاميّة، لذا كان لكلِّ علمٍ مجالُه الخاصُّ به، وإنْ كان الفقهُ مجالُه الأحكامُ الشّرعية، فمجالُ التّصوّفِ هو الأخلاق، وبعبارةٍ أخرى إنْ كان الفقهُ مهتمًّا بالتّشريعِ فالتّصوّفُ علمٌ يهتمُّ بالتّربيةِ والسّلوك، وإنْ كان الفقهُ يهتمُّ باستنباطِ الأحكامِ الشّرعيّةِ من أدلّتها فالتّصوّفُ يهتمُّ بتزكيةِ النّفسِ بتحليتِها بالفضائلِ وتخليتِها من الرّذائل، وعلى هذا الأساسِ فالحديثُ عن التّصوّفِ تفعيلٌ لما جاء به القرآنُ الكريمُ والسُّنَّة النّبويّة، ونقصدُ بذلك الأحكام التي تضمّنها الإسلامُ جملة، وهي تندرجُ تحت ثلاثةِ أقسامٍ رئيسيّة، وهي العقائدُ والفروعُ من عباداتٍ ومعاملاتٍ وأخلاق [1].

وهو ما بيّنهُ حديثُ النّبي ﷺ في حديثِ جبريلٍ المشهور عن الإسلامِ والإيمانِ والإحسان [2]، وعلى ضوءِ هذه الأقسامِ نشأتْ علومٌ حاولَ أصحابُها تقعيد قواعدِها وبيان أصولِها وفروعِها استنباطًا من الوحي الشّريف، فأسس علم العقائدِ المتعلِّق بالأصولِ ببيانِ أصولِ الاعتقاد، وهو المعبّر عنه بأركانِ الإيمانِ السِّت، وأسس علم الفقه المتضمِّن لأبوابِ العباداتِ من صلاةٍ وزكاةٍ وغيرها، ومعاملاتٍ كبيعٍ وزواجٍ وميراث، وأسس علم ثالث اهتمَّ أساطينُه بمبحثِ الأخلاقِ عن طريقِ مداواةِ النُّفوسِ بتحليتِها بالفضائلِ وتخليتِها من الرّذائلِ، وهو علمُ التّصوّفِ الذي كان موضوعُه الرّئيس إصلاح النّفسِ الإنسانيّة، وهو المعبّر عنه بالإحسانِ في حديثِ النّبي ﷺ، لذا دفع الشّيخُ زرّوق الفاسي في قواعدِه اعتراض منْ يرى أنَّ التّصوّفَ دخيلٌ لا أصلَ لهُ من كتابٍ وسنّةٍ في القاعدة 05 من كتابه: "إسنادُ الشّيء لأصلِه والقيامُ فيه بدليلِه الخاصِّ به يدفعُ قول المنكِر بحقيقتِه [لأنَّ ظُهورَ الحقِّ في الحقيقةِ يمنعُ من معارضتِها]، فأصلُ التّصوّفِ مقامُ الإحسانِ الذي فسّرهُ رسولُ الله ﷺ بأنْ تعبدَ الله كأنّك تراه ... كما دار الفقهُ على مقامِ الإسلام، والأصولُ على مقامِ الإيمان، فالتّصوّفُ أحدُ أجزاءِ الدّين"3.

لذا دعا علماءُ الأمّةِ من الفقهاءِ وأساطينِ التّصوّفِ الإسلامي إلى مراعاةِ أحكامِ الشّريعةِ الإسلاميّةِ في الجملةِ سواء ما تعلّق منها بالأوامرِ من أقوالٍ وأفعالٍ ظاهرةٍ كالصّومِ والصّلاةِ والأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكرِ أو ما تعلّق بالنّفسِ والقلبِ كالإخلاصِ والتّواضعِ والحبِّ في الله والبغضِ

---

[1] انظر: مدخل إلى التصوف، ،ص 12 بتصرف.

[2] أخرجه البخاري عن أبي هريرة ،كتاب الإيمان،باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ،رقم:50.

[3] قواعد التصوف، ص ،23.

فيه، وكذا النّواهي المتعلّقة بظاهرِ الأقوالِ والأفعال، كالنّهي عن القتلِ بغيرِ حقٍّ والسّرقةِ والزّنى والغيبة والنّميمة، وإلى ما يتعلّق بأعماقِ النّفسِ أو القلبِ كالنّهي عن الكبْرِ والعُجبِ والرّياءِ والحقدِ والضّغائنِ والتّعلّقِ بزخارفِ الدُّنيا وأهواءِ النّفوس[1].

المطلب الثّالث: أهميته

يكتسي التصوّف أهميّته بالنظر إلى موضوعه الذي من أجله وضع له ،وهو مداواة النفوس بتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل ،وحملها على مكارم الأخلاق وأمهات الفضائل ،وقد أشرنا من قبل في مفهوم التصوّف إلا أنه ينصرف إلى الأخلاق ،وهي رسالة الإسلام ونبي الإسلام ﷺ ،فقد بيّن الله أن المقصد من نبوته ورسالته هو البعد الأخلاقي والقيمي ،قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الجمعة /02.وجاء في تفسيرها :" وَابْتُدِئَ بِالتِّلَاوَةِ لِأَنَّ أَوَّلَ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ بِإِبْلَاغِ الْوَحْيِ، وَثُنِّيَ بِالتَّزْكِيَةِ لِأَنَّ ابْتِدَاءَ الدَّعْوَةِ بِالتَّطْهِيرِ مِنَ الرِّجْسِ الْمَعْنَوِيِّ وَهُوَ الشِّرْكُ، وَمَا يَعْلَقُ بِهِ من مساوئ الْأَعْمَالِ وَالطِّبَاعِ " [2]،ولا شكّ أن التّطهير من مساوىء الأعمال والطّباع تغيير الأخلاق الذميمة إلى أخلاق حسنة ،وفي الحديث الشريف ما يؤكد على هذا المعنى في قوله ﷺ "إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ " [3] .

لذا كانت الأخلاق قسما هاما من أقسام الرسالة التي تضمنت التوحيد والأصول (العقائد) والعبادات والمعاملات ،والأخلاق داخلة في هذه الأقسام الثلاث ،وهو ما يؤكده حديث جبريل المشهور عن الإيمان والإسلام والإحسان ،وينقل الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث قولا للقاضي عياض قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ –رَحِمَهُ اللَّهُ – في شرح عبارة « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » :

"وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى شَرْحِ جَمِيعِ وَظَائِفِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ عُقُودِ الْإِيمَانِ وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ وَإِخْلَاصِ السَّرَائِرِ وَالتَّحَفُّظِ مِنْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ حَتَّى إِنَّ عُلُومَ الشَّرِيعَةِ كُلَّهَا راجعة إليه ومتشعبة مِنْهُ " [4].

---

[1] انظر :باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين،محمد سعيد رمضان البوطي

[2] التحرير والتنوير،الطاهر بن عاشور،الدار التونسية للنشر – تونس،ط 1984،ج 28،ص 209.

[3] أخرجه مالك في الموطأ بلاغا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا، منها ما أخرجه أحمد في مسنده، والخرائطي في أول المكارم .

[4] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت ط02، 1992،ج01، ص 157-158.

والقرآن الكريم متضمن للدعوة إلى مكارم الأخلاق والفضائل ،بل من مقاصده تطهير الإنسان وتزكيته ،لذا امتدح الله من يشتغل بإصلاح عيوب نفسه وتطهيرها ،قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/09-10،وجاء في تفسيرها : أي: فاز بكل مطلوب، ونجا مِن كل مكروه مَن طَهَّرَها وأصلحها وجعلها زكيةً بالإيمان والطاعة،﴿وَقَدْ خَابَ مَن دسَّاها﴾ ؛ أغواها، قال عكرمة: " أفلحت نفس زكّاها اللهُ، وخابت نفس أغواها الله " ويجوز أن تكون التدسية والتطهير فعل العبد. والتدسية: النفس والإخفاء، أي: خسر مَن نقصها وأخفاها بالفجور" [1].

ولأهمية مقام الإحسان والتزكية في الإسلام جعله الله أحد المحاور التي يدور عليها موضوع القرآن الكريم ،وهو شامل لكلّ المستويات فردا وأمة وجماعة ودولة ،وفي هذا يقول محمد الغزالي :"وهكذا نرى الإحسان يشمل الفرد والمجتمع والدولة،ولن تقوم تربية راشدة إلا إذا غرسنا معنى الإحسان في النفوس على أنّه من محابّ الله تبارك وتعالى " [2].

والجانب العبادي في الإسلامي من صلاة وزكاة وصوم وحج إنما المقصد من تشريعها كونها مدارج للكمال المنشود وروافد للتطهر [3]،ويعلّق الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله- على حديث جبريل ويُبرز جامعيته وشموليته التي تضمنت الأسس العظيمة التي تحقق السعادة للإنسان باعتباره مستخلفا ومكلفا فيقول:" والحديث الذي بين أيدينا يشرح الحقيقة الصحيحة للدين ،والإيمان إذا صحّ لا بد أن ينتج العمل ،والعمل إذا صحّ لا بد أن يرتكز على الإيمان ،والإحسان إذا صح لا ينشأ إلا من إيمان راسخ وعمل كامل ...والإسلام لا يصح إلا بالروح الكامنة فيه ،والوقود المحرّك له أي الإيمان الحقّ،فإذا استبطن هذا اليقين الدافع فأمامه مثله الأعلى في إحكام الصلة بالله،والشعور برقابته الدائمة ،وشهوده الجليل وهو مقام الإحسان " [4].

إن إحياء النفوس البشرية وتطهيرها وهداية الحيارى من الناس في واقعنا اليوم مع تحديات العولمة وما صاحبها من خواء روحي وقيمي وأخلاقي وتصارع على الشهوات والماديات لا يمكن أن يقوم بهذا كله إلا الروحانية المنبثقة من جوهر التصوف الإسلامي ،لذا يرى الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله- أن التصوف باعتباره جانب من جوانب الثقافة الإسلامية الرحبة لم يلق العناية المستحقة من جمهرة المتكلمين والفقهاء ،والمتصوفة – رغم بعض شطحاتهم هم من أثاروا هذا المبحث الجوّاني ،فالفقهاء

---

[1] البحر المديد، ج07، ص309.

[2] المحاور الخمسة في القرآن الكريم ،محمد الغزالي،دار الشروق ،بدون تاريخ، ص 167.

[3] انظر: خلق المسلم،محمد الغزالي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط 01، 1987،ص 09 بتصرف.

[4] الجانب العاطفي من الإسلام ،محمد الغزالي ،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،ط 03، 2005،ص 18.

كتبوا المجلدات في غسل الأطراف ،والمتكلمون عقدوا الفصول في الشؤون الإلهية ،وعجزوا أن يرفعوا الناس إلى حضرة الله بأسلوب علمي محكم [1]

وما ذكره الشيخ محمد الغزالي صحيح ،إلا أن ما تجدر الإشارة إليه أن الفصل عند سلفنا بين ما هو كلامي وفقهي وما هو روحي أخلاقي كان لظروف العصر والسياق الثقافي والتاريخي الذي ألجأ سلف الأمة إلى تلك المباحث ،لكن هذا لا يرفع المساءلة ولا النقد من باب جلد الذات .

يكتسي التصوف الإسلامي أهميته من حيث كونه موجّه لإصلاح الباطن كما جُعلت الشريعة من حيث العبادات لإصلاح الظاهر عن طريق الأحكام الشرعية من مأمورات ومنهيات ،وعبادة الظاهر شريعة وعبادة الباطن شرع أيضا ولا فصل بينهما ،بل من الخطورة الاعتقاد بهذا الفصل ،يقول الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – في هذا المعنى :" إن الله شرع الدّين موضوعا وشكلا، معنى ولفظا ،يقظة نفسية ،وحركة بدنية ،فمن أخذ الظاهر من هذا كله وترك الباطن ،فهو يعبث بالدين ويتخذه ولعبا ولهوا " [2].

وهذا الأمر هو ما يُطلق عليه بثنائية الشريعة والحقيقة ،لذا نجد سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام يؤكّد على هذه الثنائية ،مبيّنا دور التصوف في إصلاح القلوب والبواطن وتزيينها بما يقربها من الكمال فيقول:" وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ هِيَ الْمُلَقَّبَةُ بِعِلْمِ الْحَقِيقَةِ، وَلَيْسَتْ الْحَقِيقَةُ خَارِجَةً عَنْ الشَّرِيعَةِ، بَلْ الشَّرِيعَةُ طَافِحَةٌ بِإِصْلَاحِ الْقُلُوبِ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَحْوَالِ وَالْعُزُومِ وَالنِّيَّاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، فَمَعْرِفَةُ أَحْكَامِ الظَّوَاهِرِ مَعْرِفَةٌ لِجُلِّ الشَّرْعِ، وَمَعْرِفَةُ أَحْكَامِ الْبَوَاطِنِ مَعْرِفَةٌ لِدَقِّ الشَّرِيعَةِ، وَلَا يُنْكِرُ شَيْئًا مِنْهُمَا إلَّا كَافِرٌ أَوْ فَاجِرٌ ..." [3].

ولعلّ ما غيّب صورة التصوف الحقّة ورسم عنه صورة سيئة كون أغلب الناس جعلوه رسوما وأشكالا وخِرقة ،وهو في حقيقة أمره حُرقة وألم دائم ويقظة روحية لمن أنصف ،ومما استوقفني في هذا المقام تعليق الأستاذ زكي مبارك – رحمه الله –على الفهم الخاطئ للتصوف الإسلامي ،فقال :" وكيف يقصر التصوف على أصحاب الرسوم والأشكال وهو من رسوم القلوب وأشكال الأرواح ،إن

[1] ركائز الإيمان بين العقل والقلب ،محمد الغزالي،دار الشروق ،بدون تاريخ، ص 97.

[2] المرجع نفسه ، ص 108.

[3] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام،مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ط 1991،ج 02، ص 212.

التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية ،والأساس أن يكمل الصدق ويسود الإخلاص...فيكون في الحب ويكون في الولاء ويكون في السياسة ..." [1] .

ويذكر الإمام أبو الحسن الندوي في كتابه " ربانية لا رهبانية" دور التصوف الإسلامي في التزكية وإصلاح القلوب ويرى أن استبعاد التصوف كمشروع أخلاقي كان بسب التسمية " تصوف"،لذا صاغ إشكالية مفادها جناية المصطلحات على الحقائق والغايات ، لذا يرى أن الأجدر أن يُسمّى التزكية أو الإحسان أو فقه الباطن [2]،وهو رأي يحسم الخلاف بين أهله ،لكنه ظلم معرفي لأهله من أصحاب التصوف ،إذ لا مُشاحة في الاصطلاح ،فالتصوف علم من العلوم التي نشأت في الحضارة الإسلامية ،له أصوله وقواعده ومصطلحاته عند أهله ،ولا يُمكننا أن نغيّر تسمية علم من العلوم بدعوى أنه لم يُرض طائفة معيّنة ،بل إنّي أرى أن واجب تجديد التصوف الإسلامي واستحضاره للساحة المعرفية والتربوية يكون بالدفاع عن اسمه وشرح قواعده وأصوله .

ونذكر في ختام هذا المبحث شهادة لأحد كبار الباحثين من المستشرقين في مكانة التصوف الإسلامي وهو هنري كوربان فيرى أن التصوف الإسلامي ظاهرة روحية لا تقدّر واستثمار لروحانية النبي ﷺ وجهد لعيش أنماط الوحي القرآني عيشا شخصيا عن طريق الاستبطان ،فالمعراج النبوي هو النموذج الذي حاول المتصوفة بلوغه والتصوف اعتراض على كل نزعة حاولت حصر الإسلام في ظاهر النصّ [3] ،ولا ننسى أن نذكر أيضا انجذاب كبار المستشرقين إلى التصوف الإسلامي وإنصافهم للإسلام ودفاعهم عنه انطلاقا من نافذة التصوف الإسلامي ، ومن هؤلاء نذكر الفرنسية التي أسلمت إيفا ديفيتراي ميروفيتش التي وهبت نفسها لقراءة مولانا جلال الدين الرومي ،وكذا المستشرقة الألمانية أنيماري شيمل وأعمالها عن الرومي أيضا ،ومن أبرزهم أيضا الشيخ عبد الواحد يحي – رحمه الله – ولعلّ الله يكتب لنا عودة إلى هؤلاء الأعلام وإبراز جهودهم والتعريف بهم في عمل أكاديمي خدمة للتصوف الإسلامي وبيانا لأنوار الإسلام وفضل سيدنا محمد ﷺ على الأمة ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

[1] التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق،زكي مبارك،ط 2012، ص 27-28.

[2] انظر :ربانية لا رهبانية، أبو الحسن الندوي،دار الفتح للطباعة والنشر ،بيروت ،بدون تاريخ،ص 08 وما بعدها بتصرف.

[3] انظر: تاريخ الفلسفة الإسلامية ،هنري كوربان،ترجمة :نصير مروة+حسن قبيسي ،عويدات للنشر ،بيروت ،لبنان، ط 02، 1998، ص 283 بتصرف.

المبحث الثّاني: تاريخ التّصوّف وتطوّره

عرفَ التّصوّفُ الإسلامي تطوّرًا كبيرا، وهو في ذلك كغيرِه من العلومِ الأخرى متأثِّر بالظّروفِ المحيطةِ به والمساهمةِ في تكوينِه سياسيًّا ومعرفيًّا واقتصاديًّا واجتماعيا، والحديثُ عن تاريخِ التّصوّفِ وتاريخِه حديثٌ عن اتجاهات ومدارس مختلفة عرفها التّصوّفُ الإسلامي عبر تاريخِه، سواء عن طريق

المعرفةِ أو الحبِّ أو حياةِ الزّهدِ أو بطريقِ الطّقوسِ والعباداتِ المختلفة، فالتّأريخُ للتّصوّفِ ونشأتِه تأريخٌ للحركةِ الأدبيّةِ والكلاميّةِ والعقليّةِ التي نشأتْ في الإسلام، والدّليلُ على ذلك أنّنا نجدُ من المتصوّفةِ زُهّادًا خاصمُوا الدُّنيا ومجاهدين عملوا على إعلاءِ رايةِ التّوحيدِ، ووُعّاظًا في التّوبةِ ومبتهلين يتغنّون بمجدِ الله وأصحابِ أنظمةٍ معقّدةٍ في الفلسفةِ الكلاميّةِ ومُحبِّين غابُوا في الجمالِ الخالد [1].

ويمكنُ أنْ نميّز المراحل التي مرّ بها التّصوّفُ الإسلامي على النّحوِ التّالي:

المطلب الأوّل: مرحلة الزّهد

في هذه المرحلة كان أغلب المسلمين أهل دين وزهد ،فلم تكن هناك حاجة إلى إطلاق كلمة "صوفي " في المجتمع الإسلامي للتميّز عن الآخرين ،وإنما كان هناك جماعة من أفاضل الناس أدركوا مشكاة النبوة ونورها فلم يَرضوا أن يتسمّوا بغير الصحبة للنبي ﷺ،ثم جاء بعدهم التابعون ،وكان زهد الصدر الاول من المسلمين معتدلا ،فكان التصوّف الإسلامي في بداياته الاولى طريقة عملية لا مذهب نظري [2]

تمتدُّ هذه المرحلة خلال القرنين الأوّل والثّاني الهجري، وتتجلّى هذه المرحلة مع حركةِ الزُّهدِ التي ظهرتْ في هذه المرحلة مع عصرِ الصّحابةِ والتّابعين في مختلفِ الأقطارِ الإسلاميّة، واتّجاههم إلى العبادةِ واتّخاذهم مسلكًا خاصًّا في المأكلِ والملبسِ ومن أعلامِ هذه المرحلةِ الحسن البصري (ت 110 هـ) ورابعة العدويّة (ت 185 هـ)[3]، بل تُسعفنا كتبُ التّراجمِ والطّبقاتِ في التّأريخِ لحياةِ الزُّهدِ حتّى في عصرِ الصّحابة، فقدْ عاش بعضُهم حياةَ الزّهادةِ والعبادة، ويذكرُ ابنُ الجوزي في كتابِه صفةُ الصّفوة المشهورين بالعلمِ والزُّهدِ والتّعبُّد من أصحابِ رسولِ الله ﷺ فيذكرُ منهم الخلفاءَ الأربعةَ وغيرهم [4]، إضافةً إلى طائفةِ القُرّاءِ من الصّحابةِ وأهلِ الصُّفّة وهؤلاءِ جميعًا عاشُوا حياةَ الزُّهدِ مبتعدين عن حياةِ التّرف، وهذا ما شكّل بذْرةً نمتْ فيما بعد مع نشأةِ التّصوّفِ الإسلامي ووضع قواعدِه.

وعليه لم يظهر التصوّف كمصطلح قبل المائتين للهجرة ،ولم يشع استعمال كلمة صوفي ،بل كان يُطلق اسم الزاهد أو العابد أو الفقير أو الناسك أو القارىء ،وكان أساس الزهد في هذه المرحلة الفقر وإنكار الذات ،وهجر الدنيا واحتقارها مع مراعاة دقيقة لآداب الشريعة وأحكامها ،مع استشعار

---

[1] الأبعاد الصّوفية في الإسلام وتاريخ التصوّف،ص 31 بتصرف.

[2] تاريخ التصوف في الإسلام،قاسم غني، ترجمة:صادق نشأت،مكتبة النهضة المصرية ،ط 1970،ص 33 وما بعدها بتصرف.

[3] انظر:مدخل إلى التصوّف الإسلامي، ص17.

[4] انظر: صفة الصفوة، ابن الجوزي ،تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر،ط 2000م،ج01،ص 89.

الخوف والعذاب والرجاء في الجنة والثواب ،ولم يكن الزهد في هذه المرحلة حركة من الحركات أو مذهب من المذاهب بل كان سلوكا فرديا [1].

شكّلت حياة أهل القرن الأول نواة للتصوف أو للحياة الروحية في الإسلام ومن نماذجها وجود طائفة البكائين والتوابين عند قدماء الصحابة ،ومنهم العرباض بن سارية ،كما كان للحياة الاجتماعية في عهد عثمان ﷺ وانفراد نفر من بني أمية بالولاية والحكم فيما بعد وسكنى قصور الشام والبصرة والكوفة دورا في تبلور فكرة النقد والإنكار من كبار بعض الصحابة كأبي ذرّ ﷺ الذي عاش حياة الزهد والفقر ومات منفيا ،إضافة إلى مؤشرات أخرى تمثّلت في عبادة وزهد الخلفاء الأربعة ،هذا كلّه سقى بذرة التصوف فيما بعد [2] .

كما ظهرت في الفترة الممتدة قبل المائتين للهجرة مجالس الوعظ التي كان يعقدها الإمام أبو الحسن البصري فإليه انتهت مراحل العبادة وصورها المتنوعة واحتل الحسن البصري مكانة لم يدانيه فيه أحد ممن عاصروه ،ومما يدلّ على مكانته الروحية أن جميع الطرق الصوفية تجعل سلسلتها تمرّ به ،كما ادعته الفرق والطوائف الأخرى من معتزلة وشيعة [3].

ومن البواكير الاولى للتصوف في هذه المرحلة الحديث عن المحبّة الإلهية وأبرز أعلامها في هذه المرحلة رابعة العدوية العابدة الزاهدة البصرية ،وقد جعلت من خوفها وعبادتها ودموعها طريقا إلى حضرة الحقّ سبحانه وتعالى ،وقد كانت في بداية أمرها تعيش حياة صاخبة فحطمت الناي الخشبي الذي كانت تتخذه من قبل لتعود إلى الناي الرباني في أعماقها وقلبها وأنشدت على أنغامه أناشيد العشق والمحبّة الإلهية وهي تناجي ربّها في وله في كوخ متواضع :

أحببتك حبين حبّ الهوى وحبّ لأنك أهل لذاكا [4]

وخلاصة ما يُمكن قوله في هذه المرحلة عدم تبلور التصوف كمذهب قائم بذاته له أصوله وقواعده ،وإنما كان المثوّر للحياة الروحية هو نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية التي تضمنت الحديث عن النفس وعللها وأمراضها والدعوة إلى تزكية الروح والتمسك بمكارم الاخلاق إضافة إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية التي ساهمت بشكل كبير في ظهور حياة الزهد التي كانت نقدا مبطّنا لحياة

---

[1] التصوف الثورة الروحية في الإسلام، أبو العلا عفيفي ،دار الشعب للطباعة والنشر،بيروت،بدون تاريخ ،ص 80 وما بعدها بتصرف .

[2] انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام،ج03، ص84 وما بعدها بتصرف.

[3] المرجع نفسه، ص 128 وما بعدها .

[4] المرجع السابق، ص 187 وما بعدها بتصرف.

الترف التي كانت سائدة آنذاك ،كما كانت مجالس الوعظ تصويرا للحياة السياسية السائدة في ذلك الوقت .

المطلب الثّاني: التّصوّف الأخلاقي السّلوكي

اتّجَهَ علماءُ المدرسةِ الصّوفيّةِ منذُ بدايةِ القرنِ الثّالثِ للهجرةِ إلى العنايةِ بالأخلاقِ والحديثِ عن دقائقِ النّفسِ وأحوالها، وصار التّصوّفُ في هذه المرحلةِ مُهتمًّا بالجانبِ الأخلاقي التّربوي السّلوكي، وتعمّقُوا في دراسةِ النّفسِ الإنسانيّةِ وأحوالِها وما يعترضُها من خواطر [1]، وأبرزُ من مثّل هذه المرحلة الحارثُ بنُ أسد المحاسبي (ت 241 هـ)، والجنيد البغدادي (ت 297 هـ) والكلاباذي (ت 380 هـ) وأبو طالب المكّي (ت 386 هـ)، وينوّه الإمامُ عبد الحليم محمود في مقدّمته بكتابِ الطّوسي بالدّور الذي قدّمته مدرسةُ الإمامِ الجنيد البغدادي ومدرسةُ الإمامِ الطّوسي فيقول: "مدرستان صوفيّتان اعتصمتا بالكتابِ والسُّنّة، واتّخذتا من إمامِ المرسلين إمامًا وقدوة، وجعلتا من أشواقِ الحبِّ الإلهي، ومن إلهاماتِ الرّوحِ القرآني، ومن مثالياتِ الخُلقِ المحمّدي منهجًا في المعرفةِ وطريقًا في السّلوكِ ومعراجًا للوصولِ فقدمتا للعالمين أقوى وأروع روحانيّة إيمانيّة معتصمة مهتدية ..."[2].

ويمكنُ أنْ نضيفَ إلى أعلامِ هذهِ المرحلةِ الإمام أبو القاسم القشيري (ت 465 هـ)، والإمام الهجويري علي بن عثمان أبو علي الجلاّبي (ت 465 هـ)، فقد كانت مؤلّفات هؤلاء الأعلام تكريسًا للتّصوّفِ الأخلاقي السُّنّي الذي يستمدُّ أصولَه من القرآنِ الكريمِ وأحوالِ النّبي ﷺ، فالمباحثُ المذكورةُ في هذه الكتبِ وحديثهم عن المقاماتِ والأخلاقِ مستمدٌّ كلّه من القرآنِ الكريمِ وأحاديثِ النّبي ﷺ.

المطلب الثّالث: التّصوّف الفلسفي النّظري

أدّتْ حركةُ التّرجمةِ التي تمَّ بموجبها انتقالُ التّراث اليوناني إلى الحضارةِ الإسلاميّة، وكذا انتشارُ الإسلامِ وامتزاجُ الشّعوبِ الإسلاميّةِ مع غيرها إلى دخول كثيرٍ من الأفكارِ الأجنبيّةِ إلى المجتمعِ الإسلامي، وممّا يؤشّر لهذا الفرض وجود شخصيّاتٍ في التّاريخ الصّوفي كانت أقوالها بذْرة لتيّارٍ جديدٍ مثّل التّصوّفَ في إحدى مراحله، ومن هذه الشّخصيّات البسطامي (ت 261 هـ) والحلاّج (

[1] انظر: مدخل إلى التصوّف الإسلامي، ص17.

[2] انظر :مقدمة عبد الحليم محمود لكتاب اللمع للطوسي ،ص 06.

ت 309 هـ).،وقد شكّلت آراء أبي يزيد البسطامي وأقواله قيمة ميتافيزيقية وروحية ،وعرفت حكمه بالشطحيات [1]،كما كان لأقوال الحلاّج أيضا أثرا معرفيا في الذين جاؤوا بعده ،وكانت أقواله دافعا لبعض الباحثين من المستشرقين في محاولة إيجاد رابط معرفي وروحي بين أقوال الحلاج والمسيح وهو ما ذهب إليه لويس ماسنيون [2]

والتّصوّفُ الفلسفي شكلٌ من أشكالِ التّصوّفِ يختلفُ عن التّصوّفِ السُّنِّي المعتدل الذي ظهر عند المدارسِ المعتدلةِ في المفهوم والجوهر، وهو اتّجاهٌ يعمدُ أصحابُه إلى مزجِ أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية مستخدمين في التعبير عنه مصطلحا فلسفيا ينتمي إلى الفلسفة والكلام أكثر منه إلى التّصوّف ،وهو اتجاه ظهر في القرنين السادس والسابع الهجريين ،ومن أشهر الذين حملوا رايته الشيخ الأكبر مُحي الدين بن عربي الأندلسي (ت 638هـ)[3].

ومما يؤكد على الطابع الفلسفي الذي اصطبغ به التّصوّف في هذه المرحلة الأثر الأفلاطوني والرواقي وتوجّه متصوفة هذه المرحلة إلى المباحث الوجودية بدل الدرس الأخلاقي التربوي وظهر مذهب وحدة الوجود وتحددت أبعاده ومراميه مع الشيخ الأكبر ومن بعده ابن سبعين المرسي الأندلسي (ت 669هـ)،ثم صدر الدين القونوي (ت 672هـ) [4].

المبحث الثّالث: موقف النقاد من التّصوّف

توطئة :إن الحديث عن التصوف الإسلامي اليوم حديث عن الحياة الروحية والأخلاقية في الإسلام ،ومن الإنصاف والموضوعية أن نقدّم التصوف على ما هو عليه ،وهو كغيره من العلوم الأخرى لها جوانب مشرقة ولها جوانب مظلمة ،ونقد التصوّف هو جزء كبير من محاولة تحديده وتصفيته ونخله مما علق به بتمييز الجيد والرديء منه دون أن يدفعنا ذلك إلى الظلم المعرفي

[1] تاريخ الفلسفة الإسلامية ،هنري كوربان،ص 288.

[2] انظر:الصوفية في الإسلام،ص 138 وما بعدها بتصرف.

[3] انظر:مدخل إلى التصوف الفلسفي دراسة سيكو ميتا فيزيقية، إبراهيم إبراهيم محمد ياسين ،منتدى سور الأزبكية،مصر، ط 2002م ،ص 19 بتصرف.

[4] المرجع نفسه، ص 23 وما بعدها بتصرف .

،مستصحبين في قراءتنا النقدية الأدوات المعرفية اللازمة التي تتطلب منا قراءة التصوف في مصادره ومن عند أهله ،وليس بنقل الأقوال من عند من يرون فيه سلبية وعزلة وعطالة ودروشة وجهالة ،والمطلع على الآراء النقدية التي وجّهت إلى التصوف الإسلامي يمكنه أن يقسمها إلى قسمين رئيسين وهما النقد الداخلي والنقد الخارجي ،وهو ما سنحاول إبرازه في هذا المبحث .

المطلب الأوّل: النقد الداخلي للتصوف

نقصد بالنقد الداخلي نقد أهل التصوف لأنفسهم ،وهو مسلك يمكن أن نصطلح عليه بجلد الذات ،فبالاطلاع على ما كتبه أساطين التصوف نجد القراءة النقدية لبعضهم للواقع المعرفي الذي انتهى إليه التصوف في عصرهم، فمن صور الانتقادات الداخلية النقد الذي وجهه الهجويري إلى معاصره القشيري صاحب الرسالة في سياق حديثه عن الفناء ودرجاته وأقسامه في تعليقه على صنيع النسوة اللائي رأين يوسف في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يوسف /31.

فقال القشيري معلقا على الآية السابقة ،وعلى هذا فالفناء غياب عن الذّات، فالنّفس ذاهلةٌ عن وجودها وعن عالمها،وجعل بعضهم الفناء درجات أيضًا، منها الفناء عن الصّفة، ثمّ الفناء عن رؤية الفناء، ثمّ فناؤه عن شهود فنائه وهو الاستغراق في وجود الحق [1]، وهو المعبّر عنه بالفناء عن السّوى أيْ شهود سوى الحق، فالهجْوِيري رأى في هذه المرتبة الأخيرة فناء الفناء إغرابًا في عبارة بلا معنى، وهي ترّهات أرباب اللّسان في وقت عبادة العبارة [2].

وهذا نوع من النقد المنهجي المعرفي بين أرباب التصوف ،فانظر كيف جعل الهجويري الإفراط في الاشتقاقات والتوليدات من الإغراب في العبارة ،وتأمّل قوله عبادة العبارة ،وهو لفظ ينبيء عن الحال التي آل إليها التصوف الإسلامي في القرن الخامس الهجري .

ومن صور النقد الداخلي للتصوف من أهل التصوف نقد جلال الدين الرومي(672هـ) لمتصوفة عصره في آثاره خصوصا ديوانه الشعري الشهير بالمثنوي ونورد صورة واحدة تجسّد واقع التصوف في عصره ،إذ وجّه الرّومي نقدًا لاذعًا لمتصوّفة عصره الذين يتظاهرون بالوجد والسّكر وسقوط التّكاليف، وبيان افتضاح حالهم أمام امتحان الحقّ كما افتضح الرّيفي أمام ضرطة جحشٍ، فأين السّكر مع وجود الذّات، ومثال مدّعي الوجد كالمخنّث الذي يدّعي الفروسيّة، ويجعل من نفسه الجنيد وبايزيد،

[1] الرسالة القشيرية ، ص 104 بتصرّف.

[2] أُنظر: كشف المحجوب، الهجْوِيري، ص 256 وما بعدها بتصرّف.

إنّ حال السّكر هذه هي من شرب المخيض[1]، ويواصل الرّومي نقده اللاّذع لمتصوّفة عصره بأسلوبٍ فنّي ساخرٍ في منتهى الرّوعة والتّصوير: "أتجعل من نفسك منصورًا الحلاّج، ثمّ تضرم النّار في أقطان الرّفاق ؟ وأنت لا تفتأ تقول: لا أعرف عمر من أبي لهب، (ثمّ تقول): أعرف ريح جحشي في منتصف اللّيل، أيّها الحمار ومن يصدّقك يكون حمارا، ويجعل نفسه أصم وأعمى من أجلك"[2]، ومن الصّور الفنّيّة الجميلة التي رسمها مولانا لمدّعي التّصوّف حكاية ابن آوى وسقوطه في دهن صباغ، وتلوّنه وادّعاؤه الطّاووسيّة بين أبناء آوى[3]، والصّور التي رسمها مولانا الرّومي لأدعياء التّصوّف كثيرة تُنبئ عن سعة خياله وقوّة بيانه وسحر أسلوبه السّاخر الهادف.

ومن صور النّقد الداخلي للتصوف ما كتبه عبد الرحمن الأخضري (ت 953هـ)في منظومته القدسية وما كتبه الشيخ عبد الكريم الفكّون (ت 1073هـ) في كتابه المنبيء عن الحسّ النقدي لأهل التصوّف " منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية ،والرجلان من أهل التصوف وكلاهما كان على مشرب الطريقة الشاذلية .

يُعتبر عبد الرحمن الأخضري من أعلام التصوف في الجزائر ،وممن كتب في التصوف بمسحة نقدية ،وكان في منهجه سائرا على منهج والده محمد الصغير الذي نقد مدّعي التصوف في عصره وأطلق عليهم الدجاجلة [4]

ومنظومته القدسية في التصوف ترسم لنا ملامح الحياة الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني ،ومن الصور التي انتقدها الأخضري طريقة الذكر في الطرق الصوفية بالصراخ والتصفيق والصياح وخلط لفظ الجلالة ،يقول في منظومته :

والرقص والصراخ والتصفيق عمدا بذكر الله لا يليق
وإنما المـــطلوب في الأذكار الذكر بالخشوع والوقار
فقـــــد رأينا فرقة إذ ذكروا تبدعوا وربّما قد كفروا
وصنعوا في الذكر صنعا منكرا طبعا فجاهدهم جهادا أكبرا
خلوا من اسم الله حرف الهاء وألحدوا في أعظم الأسماء
لـــــقد أتوا والله شيئا ادّا تخرّ منه الشّامخات هدّا

[1] أنظر المثنوي، جلال الدّين الرّومي، ترجمة: الدّسوقي شتّا، المكتبة العربيّة الشّرقيّة، ط 1996،ج03،ص 78-79 بتصرف.
[2] أنظر: المصدر نفسه، ج 03 ،ص 80.
[3] أنظر: المصدر نفسه، ج 03 ،ص 82.
[4] انظر:تاريخ الجزائر الثقافي ،أبو القاسم سعد الله،دار الغرب الإسلامي،ط 1998،01،ج 01،ص 500.

والألـــــف المحذوف قبل الهاء قد أسقطوا وهو ذو خفاء [1]

ومما تؤرّخ له هذه المنظومة انتساب كثير من أهل الدجل والشعوذة إلى التصوف الإسلامي تحقيقا لأغراض ومطامع دنيوية من جاه أو منصب ،فيقول متأسفا :

فهذه طريقة الرجال وآل أمرها إلى الزوال

وكثر الملبسّون فيها وصار ذو البدعة يدّعيها

واسفا على الطريقة السابلة أفسدها الطّائفة الدجاجلة

قد أحدثوا طريقة بدعية ورفضوا طريقة الشّرعية [2].

والصورة الأخرى للنقد الداخلي للتصوف رسمها لنا الشيخ الفكون –رحمه الله– في كتابه الآنف الذكر والكتاب من مؤلفات القرن الحادي عشر هجري انتقد فيه الفكون أدعياء التصوف والمشعوذين في عصره وتنافسهم وتحاربهم فيما بينهم وشيوع العقائد المنحرفة أيضا في ذلك العصر [3] .

يذكر لنا الفكّون في دواعي تأليفه لكتابه والمتمثلة في الانحراف الذي شهده التصوف في عصره –من طرف المدّعين –:" ...صار الجاهل رئيسا والعالم في منزلة يُدعى من أجلها خسيسا وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروايح السلب والطرد من المولى عليه فائحة، إلا أنهم –أعني الطائفتين – تمسّكوا من دنياهم بمناصب شرعية ،وحالات كانت قِدما للسادة الصوفية ،فموّهوا على العامّة بأسماء ذهبت مسمياتها، وأوصاف تلاشت أهلها منذ زمان وأعصارها ،لبّسوا بانتحالهم لها على أهل العصر أنهم من أهلها ..." [4].

وفي هذا النص تأكيد على تحوّل التصوف في ذلك العصر إلى رسوم وخِرق وأشكال لا معنى لها لأغراض دنيوية خسيسة مستغلين جهل العوام الذين تعتقد فيهم البركة .

ونكتفي بذكر صورة واحدة من مظاهر المشيخة والولاية التي انتقدها الفكون والمتمثلة في مدّعي الولاية قاسم بن أم هانىء بنواحي نقاوس الذي اتخذ في ذلك الوقت خلوة ومريدين وأظهر التقشف والزهد في المأكل فكان يأكل النخالة والشعير ،وفي الملبس فكان يلبس حقير الثياب واتّخذ له ولمريديه

---

[1] القدسية في التصوف ،عبد الرحمن الأخضري ،مطبوع ضمن الروض الباسم في ترجمة سيدي محمد بن أبي القاسم، طبعة حجرية،ص 116-117.

[2] المصدر السابق،ص 124-125.

[3] انظر المقدمة التي كتبها أبو القاسم سعد الله ،منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية ،عبد الكريم الفكون،تحقيق:أبو القاسم سعد الله،دار الغرب الإسلامي،ط 01،1987،ص 17.

[4] المرجع نفسه،ص 31-32.

حضرة يذكر فيها الله ويغيّرون اسمه ويشطحون ويرقصون :" فتراهم ككلاب نابحة ،ولعابهم كمياه طافحة،وأنفاسهم كنيران نافحة ،لا يفرقون بين واجب ولا مندوب ،ولا محرّم ومكروه ويعتقدون أن ماهم عليه هو الحقّ الواضح،والطريق الأقوم الرّاجح ...وعند المائدة إذا وُضعت لهم فكلاب عاويّة..."[1].

إن التصوف قائم على مراعاة حرمة الشريعة كما أقرّ بذلك المحققون من أهل التصوف وهؤلاء تلاعبوا بالدّين وأحكامه واتخذوا رؤساء جهّال ،يعتقدون أنهم يبرئون الأكمه والأبرص ويهبون المال والولد ،وهذا هو الشرك بعينه .

من الصور النقدية المعاصرة أيضا للتصوف من الدّاخل ما كتبه الباحث عبد الباقي مفتاح في كتابه عن أحمد التيجاني ﷺ وأتباع طريقته ،فقد ذكر بعض المؤاخذات على الطريقة التيجانية ومنها :

اعتقاد بعض التيجانيين أن الصلاة على النبي ﷺ بصيغة الفاتح [2] هي من كلام الله القديم وأن ثواب الصلاة الواحدة يعدل ثواب ستة آلاف ختمة من القرآن ،ومنها أيضا الغلوّ في تقديس شيخ الطريقة والقول بأنه أفضل الأولياء اطلاقا بعد الصّحابة مع الغلوّ في فضائل أولاد الشيخ [3].

المطلب الثّاني: النقد الخارجي

نقصد بالنقد الخارجي ما كتبه الباحثون من غير أهل التصوّف وهو نقد يُحتاج إليه خصوصا إذا وضعنا بعين الاعتبار أهمية التصوف الإسلامي وحاجتنا إلى تجديده ،فستساهم مختلف الرؤى في إعادة بناء التصوف ونَخله وغربلته وإزالة ما علِق به على مرّ السنين وكرّ الدهور وسنختار الشيخ محمد الغزالي—رحمه الله–.

من النقاط التي انتقدها الشيخ محمد الغزالي على التصوف ما تعلّق بارتباطه بمفهوم العزلة ودعوة البعض من أهله إلى العزلة لأنها في التصوف طريق إلى الفكرة وصفاء النفس من الشواغل ،فالغزالي يرى أن إباحة العزلة المؤقّتة التي يكون الهدف منها تحصين النفس وسدّ الثغور ،أما أن تتحوّل العزلة إلى فرار وتقوقع بدعوى أنها تعين على هدوء البال ورقّة الحال فهو أمر مرفوض وفيه تضييع للواجب

---

[1] المرجع السابق ،ص 119-120.

[2] ونصّها "اللهم صلّ على سيّنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحقّ بالحقّ والهادي إلى صراط مستقيم وعلى آله حقّ قدره ومقداره العظيم " انظر: أضواء على الشّيخ احمد التيجاني وأتباعه، طبعة بنك البركة ،بدون تاريخ ،عبد الباقي مفتاح ،ص 133.

[3] انظر:المرجع نفسه،ص 139.

الكفائي المتمثّل في هداية النّاس وتذكيرهم وهو أولى من هدوء الأعصاب [1]،فالغزالي هنا استحضر البعد الإجتماعي والمسؤولية الأخلاقية والجماعة مقدّمة على الفرد ،بل يؤكد الغزالي أن الذين يجابهون الحياة ويُغبّر وجوههم دخان المصانع وتراب الحقول أولى الناس بالله وكتابه من أولئك الذين يرون في الروحانية اعتزالا وخِدرا نفسيا [2].

ومن المسائل التي انتقدها الشيخ محمد الغزالي أيضا ما تعلّق بالذكر في الطّريق الصوفي ،وهو إن كان مما أمر به الشارع إلا أن الكثير جعله مطلوبا لذاته فاتخذه غاية لا وسيلة ،ويستشهد –رحمه الله– بحاله وكيف جلس بعد الصلاة للذكر وكان قلبه في وادي آخر ولسانه يلهج بالذكر وشعوره بالتناقض مع نفسه فعلق قائلا أن البون بعيد بين الكلمات التي ننطق بها ومعناها المخبوء تحتها فأضحينا كالببغاوات تجري على أفواهنا كلمات جليلة ،إلا أن معناها في النفوس منعدم إن لم يكن نقيضه موجودا [3] ،لذا يرى الغزالي أن الذكر كعبادة دينية أسيء فهمه وتوظيفه ،فالاجتماع على أوراد خاصّة وترك المسؤوليات الاجتماعية والوظائف والأعمال هروب من الواجب ونكوص على الأعقاب ،فينبغي أن تكون حياتنا كلها ذكرا لله وإعلاء لكلمته ،فحديث جبريل "أن تعبد الله كأنك تراه " ليس معناه وضع القدمين في الصلاة وتحريك اللسان بالذكر إنما هو إقامة أوامر الله في شؤون الحياة كلها سياسة واقتصادا وتعليما ،إضافة إلى الشبهة التي وقع فيها الكثير حين اعتقدوا أن الذكر غاية لا وسيلة لما يتركه في نفوسهم من الآثار والصفاء فيستغنون به عن غيره من العبادات ،ويُعلّق الغزالي في هذا المقام على حديث لأبي الدرداء ورد في مسند احمد بن حنبل ﷺ 4 ،جاء فيه « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، قَالَ مَكِّيٌّ: وَأَزْكَاهَا، عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا: وَذَلِكَ مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » [5]

---

[1] المحاور الخمسة في القرآن الكريم،ص 68 بتصرف.

[2] المرجع نفسه،ص 70.

[3] ركائز الإيمان بين العقل والقلب ، ص 107 بتصرف.

[4] انظر:الجانب العاطفي من الإسلام،ص 74 وما بعدها ،وانظر أيضا: المحاور الخمسة،ص 68.

[5] أخرجه أحمد في مسنده عن أبي الدرداء، مسند احمد ،تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون،مؤسسة الرسالة،ط 01، 2001،ج36،ص 34.

بيّن الغزالي أن الحديث أسيء فهمه داعيا إلى التدبّر والتعقّل مبينا أن الجهاد في سبيل الله أرفع درجات الذكر والمعنى الصحيح للحديث هو أن الذكر المجرّد أفضل من الجهاد المشوب بحب الغنائم وطلب الشهرة فالنيّة الطاهرة أفضل من العمل الكدِر [1]

من الصور الأخرى التي انتقدها الغزالي أيضا على التصوّف الإغراب في العبارة الصوفية وصعوبتها مبيّنا أن التصوف الحقّ لا يقوم على تزويق العبارات ولا شرح الفلسفات العويصة ،والأمر لا يتطلّب إلا قراءة الفاتحة بتدبّر معانيها ليكون القلب مرآة نقية لما احتوت عليه من حمد وثناء ،ويتوجّه الغزالي بالنقد لأحد أعلام التصوف وأساطينه وهو ابن عجيبة(ت 1224هـ) في تقسيمه العلوم إلى علم الشريعة والطريقة والحقيقة وكون الأول لإصلاح الظاهر والثاني لإصلاح الضمائر والثالث لإصلاح السرائر وتعليق الغزالي على هذا التقسيم بكونه كلام مضطرب قائم على التلاعب بالألفاظ والعبث بالمفاهيم والشريعة جاءت لإصلاح الظاهر والباطن معا،مضيفا أنه ليس هناك أهل شريعة وآخرون أهل حقيقة فالوحي الإلهي جاء للجميع [2].

وهذا الانتقاد الذي ذكره الغزالي نبهنا عليه في حديثنا عن ثنائية الشريعة والحقيقة ،وذكرنا كلام العز بن عبد السلام .

من الصور الأخرى التي انتقدها الغزالي على مسالك التصوف ما تعلّق بضرورة تحصيل العلوم والمعارف وتوظيفها لخدمة التصوف الإسلامي ،فإن كان التصوف علما قائما على الذوق والكشف فلا غنى له عن تحصيل العلوم والمعارف ،بل يدعو الغزالي إلى ضرورة توظيف واستثمار علم النفس والعلوم الإنسانية الأخرى من أجل مداوة النفوس والدخول إلى باطنها ،فالتعويل على التصوف وحده غير مُجدي ،ويرى أن التديّن المقترن بالجهل عبادة قاصرة ينتشر بين أهلها البدع والخرافات والشعوذة[3] .

وهذه الصورة التي نقلها الغزالي حقيقة لا تُنكر في التراث الصوفي وكُتب التصوف مليئة بالدعوة إلى أخذ المعرفة بطريق الكشف وعدم التعويل على طريق العقل .

هذه نماذج نقدية من الشيخ الغزالي للتصوف الإسلامي وهي رؤية جيّدة من الخارج يمكن أن تُستثمر تصحيحا للمسار وغربلة للجانب المظلم من هذا التراث الروحي الضخم ،وختاما استوقفني رأي للشيخ الغزالي نختم به هذا المطلب وهي رؤية نقدية شاملة لكلّ العلوم ،ومرافعة عن التصوف

[1] انظر:الجانب العاطفي، ص 69-70

[2] انظر : ركائز الإيمان،ص 111 بتصرف.

[3] المرجع نفسه، ص 104.

الإسلامي ،إذ يرى الغزالي أن جعلنا التصوف الإسلامي منديلا نمسح به أوضارنا ففساد التصوّف جزء من فساد جملة العلوم الدينية وفي مقدمتها الفقه والكلام والتفسير والحديث ،وانحطاط التعليم الديني في هذه المجالات هو المسؤول عن تكوين هذه الأجيال [1].

المبحث الرابع: الطّريقة الصّوفيّة، أسسها ووظائفها

تمهيد:

سنحاول في هذا المبحث الوقوف عند أهم الطرق الصّوفيّة ببيان أصول هذه الطرق، وأسسها التي تقوم عليها وأورادها.

[1] المرجع السابق، ص 138 بتصرف.

المطلب الأوّل:الطريقة القادرية

تنسب الطّريقة القادرية إلى مؤسسها عبد القادر الجيلاني (ت 571هـ) ،ويجعلها البعض أول الطرق الصّوفيّة تأسيسا وظهورا في العالم وأقدمها وجودا في الجزائر [1] ،وإن كان هذا الكلام صحيحا في شقّه الأوّل من حيث تاريخ الظهور والتأسيس إلا أن مسألة كونها أول الطرق وجودا في الجزائر فرضية تحتاج إلى بحث تاريخي دقيق .

المؤسس:

هو مُحي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلاني بن أبي صالح موسى جنكي دوست ، وأمه هي أم الخير فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعي الزاهد ينتهي نسبه من جهة أبيه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام،ومن جهة أمه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام [2]

مولده:

ولد سنة 470هـ بجيلان بالعراق [3] جنوب بغداد ،ومنه جاءت النسبة إليها فيقال الجيلاني أو الكيلاني ،نشأ في أسرة صالحة عرفت بالزهد والصلاح ،تعلّم في مسقط رأسه ثم انتقل إلى بغداد سنة 488هـ وعمره ثمانية عشر سنة ،وفيها أكمل تعليمه بمدرسة أبي سعيد المخرمي ،سافر إلى بيت الله الحرام حاجا مرتين ،إحداهما في سنة 509هـ ،والأخرى سنة 555هـ .وبعدها رجع إلى بغداد وانقطع للوعظ والتدريس 4 .

شيوخه :

---

[1] انظر في ذلك :الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها ،صلاح مؤيد العقبي،دار البراق،بيروت ،لبنان،ط2002،ص 143.

[2] انظر: طبقات الأولياء، ابن الملقن ،تحقيق:نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجي، بالقاهرة،ط 02، 1994. ج 01 ،ص 246. الكواكب الدّريّة في تراجم السّادة الصّوفيّة، المنّاوي، تح: عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهريّة للتّراث، بدون تاريخ ، ج 01 / 676. جامع كرامات الأولياء، النّبهاني، تح: إبراهيم عطوة عوض، مركز أهل السّنّة، غجرات، الهند، ط 01، 2001، ج 02 / 200.

[3] يُعتبر محل مولده مثار خلاف ،منشؤه كلمة " جيلان" هل هي التي بالعراق ؟ أم ببلاد فارس – إيران- وقد اعتمدت تحقيق أحد أحفاد الشيخ عبد القادر الجيلاني وهو جمال الدين فالح الكيلاني في كتابه " جغرافية الباز الأشهب قراءة ثانية في سيرته".

[4] انظر في ذلك: جغرافية الباز الأشهب قراءة ثانية في سيرته، جمال الدين فالح الكيلاني المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم ، ط04، 2014، ص 28 وما بعدها بتصرف.وانظر:الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة ،عبد الرزاق الكيالي،دار القلم ،دمشق،ط01، 1994،ص 85.

أخذ عبد القادر الجيلاني عن جملة من الشيوخ ،فتفقه على يد أبي سعيد المخرمي وابن عقيل شيخ الحنابلة في بغداد [1] ،وأخذ الحديث عن جماعة منهم أبو محمد جعفر بن احمد السرّاج،وأخذ الأدب عن زكريا التبريزي،وغيره.

ومن شيوخه في التّصوّف أخذ عبد القادر الجيلاني أصول الطريق عن ثلاثة مشايخ من أئمة الطريق وهم:

الأوّل أبو يعقوب يوسف بن أيوب بن يوسف الهمذاني ،وقد أخذ عنه المبادىء النظرية ،أما الثّاني فهو حماد الدباس وقد أخذ عنه الأحوال ،أما الثّالث فهو أبو سعيد المخرمي وأخذ عنه المقامات ومنازل السير [2].

والملاحظ بالاطلاع على سيرة الرجل أن أكبر شيوخه تأثيرا فيه هو أبو سعيد المخرمي خصوصا إذا علمنا أن انتسابه لمدرسة شيخه كان لها الدور الكبير في صقل شخصيته عن طريق الوعظ والتدريس والافتاء.

تلاميذه:

خلّف الشيخ عبد القادر الجيلاني عدة تلاميد ،منهم القضاة ورجال الافتاء والفقهاء والحفاظ والمحدثون وشيوخ الطرق الصّوفيّة 3 الذين ساهموا في نشر طريقته ومن أبرز هؤلاء أبو مدين شعيب (594هـ)،الذي كان له الدور البارز في نشر طريقته بالمغرب إضافة إلى أبنائه وأحفاده الذين نشروا طريقته ومن أبنائه عبد الرزاق (ت 603هـ) وكان ثقة حافظا زاهدا عابدا ،ومن أحفاده أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر(ت 633هـ) [4]

آثاره:

أشهر ما ترك لنا الشيخ عبد القادر الجيلاني ويصحّ نسبته أربعة كتب وهي:

-الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل-فتوح الغيب -الفتح الرباني والفيض الرحماني -الديوان

-الجمع بين الفقه والتّصوّف في الطريقة القادرية:

---

1 يقع الخوانساري في خطأ في ترجمته لعبد القادر الجيلاني فيجعله مالكيا رغم أنه كان حنبليا ،انظر : روضات الجنّات في أحوال العلماء والسّادات، الخوانساري، الدّار الإسلاميّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط 01، 1991،ج 05،ص 81.

2 انظر:أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته ،عبد الباقي مفتاح ،دار الهدى ،عين مليلة الجزائر،ط 2008،ص 81 بتصرف،وانظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، ص 109.

3 انظر: أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته،ص 174 وما بعدها بتصرف.

4انظر: جغرافية الباز الأشهب ،ص 51 بتصرف.

تطلعنا سيرة الشيخ عبد القادر الجيلاني – رحمه الله –عن ضلوعه في علوم الشريعة من فقه وعقائد وحديث وسلوك ،وهو ما انعكس على مدرسته المعرفية عموما والصّوفيّة خصوصا ،وبهذا "وفّق بين الفقه والتّصوّف وآخى بين الفقهاء والمتصوفة، وأخضع الحقيقة للشريعة ،وصفى التّصوّف من البدع والضلالات التي دخلت عليه، وهكذا دان له الفقهاء والمتصوفة في زمنه..." [1]

وتظهر هذه النظرة التوفيقية بين الفقه والتّصوّف، بقوله أن "التّصوّف مشتق من الصفاء وليس من لبس الصوف، والتّصوّف لا يجيء يتغيير الخرق وتصفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل إنما يجيئ بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا وإخراج القلب وتجرّده عمّا سوى الله "[2].

فانظر كيف انتقد الشيخ عبد القادر الجيلاني من اطمأنوا إلى ظاهر عباداتهم وأفعالهم مع غياب الصدق والإخلاص والخشوع والخضوع للحق ،فانقياد القلب لأوامر الله مسألة اكدّ عليها اساطين التّصوّف ،لذا نجد صاحب الحكم العطائية يقول في هذا المعنى :" الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سرّ الإخلاص فيها" [3]، وهذا النقد الذي وجهه عبد القادر الجيلاني لمجتمعه وعصره هو ما نعاني منه اليوم في واقعنا وحياتنا إنه على تعبير الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي " باطن الإثم "،لذا يؤكد على معنى الإخلاص وضرورته فيقول :" فإذا لم يتوفر الإخلاص لله في القلب لم تثمر الطاعات الظاهرة على اختلافها في القرب إلى الله جل جلاله ، وإذا لم تتهذب النفس بالأخلاق الفاضلة التي أمر الله المسلم بأن ينسج منها ثوباً سابغاً خفياً لها ،لم يغنها أي غناء ما قد يلبسه صاحبها على مرأى من الناس من ثوب الصلاح والتعبد والتقوى " 4.

وغياب الإخلاص في الأعمال طريق لموت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية وهو أحد الأمراض التي فتكت بالأمة كما أشار إلى ذلك الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي – رحمه الله- في الخطبة الشامية .

أسس الطريق الصوفي في القادرية:

1 الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، ص 219.

2 الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبد القادر الجيلاني، دار الريان للتراث، الجيزة، مصر ،بدون تاريخ، ص 115.

[3] شرح الحكم العطائية، زروق الفاسي ،تحقيق:عبد الحليم محمود،دار الشعب،القاهرة،ط 1985،ص 35.

[4] باطن الإثم الخطر الاكبر في حياة المسلمين،محمد سعيد رمضان،ص 15.

تستشفّ معالم الطريق الصوفي عند المؤسس من خلال مؤلفاته ،فتجد في كتابه فتوح الغيب في المقالة 75 في جوابه عن سؤال حول التّصوّف وعلى أي شيء مبناه؟ يجيب عن ذلك بكلام جامع يشكّل الأصول العامة للطريقة القادرية ،فيقول:

" أوصيك بتقوى الله وطاعته ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر وسخاء النفس وبشاشة الوجه وبذل الندى وكف الاذى وتحمل الاذى والفقر وحفظ حرمات المشايخ والعشرة مع الاخوان والنصيحة للأصاغر والاكابر وترك الخصومة والارفاق وملازمة الايثار ومجانبة الادخار وترك صحبة من ليس من طبقتهم والمعاونة في أمر الدين والدنيا" [1].

وبالتأمل في هذه الوصايا نجد البعد الأخلاقي التربوي والاجتماعي للتصوف الإسلامي العملي الذي يستمد أصوله من الوحي ونور النبوة ،وكلها قواعد أخلاقية وفضائل

إن الركائز التي وضعها المؤسس لا تخرج عن تلك القواعد التي أرساها المؤسسون الأوائل كالكلاباذي والهجويري والمكي والطوسي ،من خلال ترتيبهم للمقامات المختلفة التي يمر بها السالك أو المريد في الطريق الصوفي ،وأبرز هذه الركائز أو المقامات التي ذكرها عبد القادر الجيلاني تتثمثل في سبعة أسس وهي: المجاهدة- التوكّل – حسن الخلق – الشكر –الصبر – الرضا – الصدق ،وهو ما أكده عبد القادر الجيلاني في كتابه الغنية ،فقال:

" إذ هذه الأشياء السبعة أساس لهذه الطّريقة والكلّ خير" [2]

1-المجاهدة:والأصل فيها قوله تعالى :﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت /69 ،والجهاد هنا هو جهاد النفس ،لذا يجعل أساطين التّصوّف أن من شرط الطريق المجاهدة ،وفي هذا يقول أبو علي الدقاق من زيّن ظاهره بالمجاهدة حسّن الله سرائره

[1] فتوح الغيب،عبد القادر الجيلاني،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده،مصر،ط 02، 1973،ص 166.

[2] الغنية لطالبي طريق الحق عزوجل، عبد القادر الجيلاني ،منشورات محمد علي بيضون ،دار الكتب العلمية،بيروت ،لبنان ،ط 01، 1997،ج 02،ص 306.

بالمشاهدة ،وكل من لم يكن صاحب مجاهدة لم يجد رائحة نحو الحق سبحانه وتعالى ،وقال أبو عثمان المغربي من ظنّ أنه يُفتح عليه بشيء في هذه الطّريقة أو يُكشف له شيء بغير المجاهدة فهو غلط [1].

يظهر من خلال الكلام السابق استمداد عبد القادر الجيلاني واستفادته من علماء التّصوّف الذين سبقوه ،وهذا الكلام الذي ذكره موجود في الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري [2].

وفي كتابه الفتح الرباني في المجلس الثامن عشر يقسم الجيلاني الجهاد إلى ظاهر وهو جهاد العدو للدفاع عن الأوطان وجهاد الباطن وهو جهاد النفس ويعتبر الباطن أصعب لأنه لازم ومتكرر :" وكيف لا يكون أصعب من الجهاد الظاهر وهو قطع مألوفات النفس من المحرمات وهجرانها وامتثال أوامر الشرع والانتهاء عن نهيه..." [3].

وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن الطّريقة القادرية جمعت بين جهاد الظاهر والباطن ومساهمتها في الحروب الصليبية على عهد صلاح الدين الأيوبي [4] معروفة ،وكذا مساهمتها في محاربة الاستعمار الفرنسي بالجزائر على عهد الأمير عبد القادر الجزائري .

وفي المقالة 67 من فتوح الغيب يشرح لنا معنى حديث النبي ﷺ « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» ،فيقول:" كلّما جاهدت نفسك وغلبتها وقتلتها بسيف المخالفة أحياها الله..."[5]،فانظر إلى هذه الصورة البيانية الساحرة التي رسمها لنا عبد القادر الجيلاني وهذه المقابلة بين جهاد الميدان لردّ الأعداء وجهاد الباطن لردّ كيد النّفس ،وهو في غاية الجمال والدقّة.

2-التوكّل:والأصل فيه قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾الطلاق/03 وفي الحديث «أن سبعين ألف من أمة محمد ﷺيدخلون الجنة بغير حساب» [6] .

---

[1] انظر:المصدر نفسه ،ج02، ص 306.

[2] انظر:الرسالة القشيرية،ص 133

[3] الفتح الرباني ،ص 83.

[4] انظر في ذلك : هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ،ماجد عرسان الكيلاني ،دار القلم ،الامارات العربية المتحدة، ط03، 2002،ص 177. وانظر مساهمة الطريقة القادرية في مقاومة الاحتلال الفرنسي بالجزائر ،تاريخ الجزائر الثقافي ج 04،ص 42 وما بعدها بتصرف.

[5] فتوح الغيب، ص150.

[6] أخرجه البخاري عن ابن عباس،كتاب الطبّ ،باب من لم يرق،رقم:5752.

وحقيقة التوكّل تفويض الأمر إلى الله وترك التدبير ،فعلى العبد أن يعلم أن ما قسم له لا يفوته،وما لم يُقدّر له لا يناله فيطمئن إلى مولاه [1].

وفي فتوح الغيب في المقالة السادسة عشر يتحدث عن التوكّل ومقاماته ،وينبه على خطورة اللجوء إلى الخلق اعتقادا بنفعهم وضرّهم وسؤالهم الحاجات من دون الله عز وجل، لذا يعتبر الجيلاني أن هذا من الشّرك

وقد يتوهّم البعض أن التوكّل مناف للأخذ بالأسباب ،وهذا وهم وفي كلام عيد القادر الجيلاني ما يرفعه مبينا أنّ جوهر التوكل هو الكسب وطلب الرزق مع اعتبار أن الله هو الرزاق على الحقيقة والموفق لكل خير ،فتارة يكون الرزق بالكسب وتارة أخرى من غير سبب عن طريق مأدبة الله عز وجل [2]

3–حُسن الخُلُق:أسس عبد القادر الجيلاني طريقته على الأخلاق وأمهات الفضائل ودعا مريديه وطلبته إلى طلب هذه المكارم من الفضائل والترفّع عن الرذائل ،مستمدا هذا الأصل من نصوص الوحي ونور النبوة ،فمن القرآن الكريم مدح الله لنبيه قائلا ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم /04،ووصف الله له بالخُلق العظيم من كونه لا يُخاصِم ولا يُخاصَم ،ولا يؤثّر فيه جفاء الخَلق بعد مطالعته للحقّ ،ويشير عبد القادر الجيلاني الى ارتباط الخُلق الحسن بالخَلق من حيث كفّ الأذى عنهم وتحمّل الاذى ومع الحقّ باتباع أوامره واجتناب نواهيه وطاعته في الأحوال كلّها وعدم الشّرك به[3]

4–الشُكر:وهذه الركيزة مستفادة من القرآن الكريم وسيرة سيد البشر ،وأصلها من القرآن قوله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ إبراهيم/07،ومن السنّة قوله ﷺلعائشة حين رأت كثرة قيامه وتضرّعه وقد غفر له ما تقدّم وما تأخر من ذنبه «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» [4] .

ويُعرّف الجيلاني الشكر بكونه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخصوص، لذا سمّى الله نفسه الشّكور لأنه يجازي عباده على الشكر بمثله ،وشكر العبد للحق بثنائه على جميل إحسانه وكرمه وفضله ونعمه التي لا تُحصى، ويقسّم الجيلاني الشكر إلى ثلاث درجات ،أولاها شُكر اللسان بالاعتراف بالنعمة

---

[1] الغنية لطالبي طريق الحق عزوجل،ج02،ص 317.

[2] فتوح الغيب ،ص38.

[3] انظر: الغنية،ج2،ص 322 بتصرف.

[4] حديث أخرجه مسلم عن المغيرة بن شعبة، كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ،بَابُ إِكْثَارِ الْأَعْمَالِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ،رقم: 2819 .

قولا ،وثانيها شكر البدن بالاتصاف بالوفاء والخدمة ،أي بالتزام الطاعات وترك المحرّمات، وثالثها شكر بالقلب بشهود جمال الله وجلاله [1]

وفي المقالة 70 من فتوح الغيب يدعو الجيلاني المريد إلى إضافة النعم كلها إلى الحقّ سبحانه وتعالى إلا الشرّ والمعاصي فينبغي أن تُنسب إلى النفس وسوء الأدب والخُلق لأن النفس مأوى كل شر وأمارة بكلّ داهية ،وإن كان الله هو خالقك وخالق أفعالك مع كسبك ،فأنت الكاسب وهو الخالق[2] .

5- الصبر:من الأسس التي وضعها الجيلاني للمريد الصبر وأما الأصل فيه من القرآن فقوله تعالى:﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران/200،ومن السنة أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ« إنما الصبر عند الصدمة الأوّلى »[3].

ويقسمه الجيلاني إلى ثلاث مراتب ،أولاها صبر لله بآداء ما أمر والانتهاء عمّا نهى ،وثانيها صبر مع الله تحت جريان قضائه وأفعاله،وثالثها صبر على الله على ما وعد من النصر والتمكين [4]،وفي المجلس السابع من الفتح الرباني يخاطب المؤمن مذكرا إياه بهذه الفضيلة العظيمة قائلا:

" (يا قوم) اصبروا فإن الدنيا كلّها آفات ومصائب ،والنادر منها غير ذلك،ما من نعمة إلا وفي جنبها نقمة،ما من فرحة إلا ومعها ترحة، ما من سعة إلا ومعها ضيق..." [5].

6- الرضا:يؤصّل عبد القادر الجيلاني لهذا الأساس من الكتاب والسنة، فأما أصله من القرآن فقوله تعالى﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ المائدة/119 ،ومن السنة قوله ﷺ« ذاق طعم الايمان من رضي بالله عزوجل ربا» [6] ،وأورد الجيلاني الاختلاف الدائر بين أهل التّصوّف في الرضا هل هو مقام أم حال ،وحاول أن يجمع بين الرأيين معتبرا أن بدايته للسالك مقام ونهايته له رضا ،فبدايته مكتسبة

---

[1] الغنية،ج2،ص 322 بتصرف.

[2] انظر: فتوح الغيب، ص 157. يميل عبد القادر الجيلاني في مسألة القضاء والقدر إلى رأي الأشاعرة في القول بالكسب .

[3] أخرجه مسلم عن أنس بن مالك، كِتَابُ الْكُسُوفِ، بَابٌ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ،رقم:926

[4] الغنية، ج02،ص 326 وما بعدها بتصرف.

[5] الفتح الرباني،ص 42.

[6] أخرجه مسلم عن العباس بن عبد المطلب ،كتاب الإيمان، بَابُ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، رقم:34.

ونهايته حال ترد على العبد [1]،وفي المقالة 23 من فتوح الغيب يوصي السالك المريد " ارض بالدّون والزمه جدا حتى يبلغ الكتاب أجله ،فتنتقل إلى الأعلى والأنفس ..."[2]،وهذا الكلام يؤكد رأيه السابق في التوفيق في مسألة الرضا فانظر كيف جعل عبد القادر بدايته مقاما ونهايته حالا.

7-الصدق:وهو الأساس السابع في الطّريقة القادرية وللمريد والسالك ،وكعادة الشيخ يستمد من أنوار القرآن الكريم والسنة النبوية ،فمما يدل على هذا الأساس من القرآن قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة/119، والصدق هو اللازم من الصدق،والصديق هو المبالغة منه،وهو من تكرر منه الصدق فصار دأبه وسجيته،وصار الصدق غالبه،فالصدق استواء السرّ والعلانية..." [3]،وفي فتوح الغيب في المقالة 38 يقدم معنى آخر للصدق ويجعله قرين التوحيد "يا قوم لا تدّعوا ماليس لكم ووحدّوا ولا تشركوا..."[4]،وفي المجلس 57 من الفتح الرباني يجعل الشيخ الالتزام بشرائع الإسلام عنوانا للصدق بالاستسلام والخضوع لأوامر الله ومنه يُسمى المسلم مسلما باستسلامه لأوامر سيده:" (ويحك) تدّعي أنك مسلم وأنت معترض على الله عزوجل وعلى الصالحين من عباده كذبت في دعواك،الإسلام مشتق من الاستسلام لقضاء الله وقدره والرضا بأفعاله مع حفظ حدود كتابه وسنة رسوله ﷺ"[5]

هذه هي الأسس السبعة للطريقة القادرية وللمريد والسالك فيها كما جمعها المؤسس عبد القادر الجيلاني وذكرها في كتابه "الغنية" مفصّلة ،مع شرح لها في مواطن أخرى من مؤلفاته .

فرع 03: الآداب العامّة:كنّا قد تكلمنا عن أصول السير الصوفي في الطّريقة القادرية ،ونذكر هنا جملة الآداب التي يُطلب من المريد أو السالك في الطّريقة التحلّي بها وهو ما ذكره الشيخ في كتابه الغنية ،إذ خصص كتابا لذلك ،وعنونه ب:" كتاب آداب المريدين من الفقراء الصادقين سالكي طريقة الصّوفيّة"[6] ،وتناول هذا الكتاب ضمن أبواب مختلفة ،وهي بمثابة القواعد الأخلاقية ،أو ما يُصطلح عليه ب" النظام الدّاخلي " وسنحاول أن نذكر هذه الآداب مُجملة تجنبا للطول ومنها:

---

[1] الغنية،ج02،ص 329.

[2] فتوح الغيب،ص 54.

[3] الغنية،ج02،ص 334.

[4] فتوح الغيب ،ص 95.

[5] الفتح الرباني، ص 246.

[6] انظر :الغنية،ج02،ص 269.

1-الإلتزام بالكتاب والسنّة 2- الجدّ والكدّ ولزوم الحدّ3- الاستماع للشيوخ 4-الاعتقاد بشيخ الطّريقة محبّة واحتراما دون الغلوّ أو اعتقاد العصمة فهو بشر يُخطىء ويصيب 5- محبّة الشيخ 6- الدعوة إلى الله7- كثرة الذكر والاستغفار والصلاة على النبي 8-محبّة آل البيت –عليهم السلام- 9محبّة الأوّلياء والصالحين.[1]

-الأوراد والأذكار في الطّريقة القادرية:

يلتزم أتباع الطّريقة القادرية بأذكار تختلف صيغها من فرع إلى آخر ،ومضمونها كلّه مقتبس من القرآن الكريم ،أو من الأذكار النبوية، وهي تتكون من تلاوة للقرآن واستغفار وابتهالات وأدعية وصلوات على النبي ﷺوتسبيح وتحميد وغيرها [2]،ويذكر الجيلاني في كتابه "الغنية" الأوراد التي تُستحب للمسلم عموما فيجعل للنّهار خمسة أوراد ثم يذكر ما يُستحبّ فيها من الآداب مستمدّا ذلك كلّه من نصوص القرآن وما ورد من صحيح السنّة النّبوية .

المطلب الثّاني :الطّريقة الرّفاعية:

نسبة إلى أحمد الرّفاعي(512 هـ -578هـ) ،وتُعرف أيضا بالأحمدية لأن اسم مؤسسها احمد، وبالبطائحية نسبة إلى قرى البطائح بين البصرة وواسط،وكانت مقرّ سكناه .

المؤسس:أبو العباس أحمد بن أبي الحسن على، الرفاعي نسبة، ابن يحيى بن حازم بن على بن ثابت بن على بن الحسن الأصغر ابن المهدى بن محمد بن الحسن، ابن يحيى بن ابرهيم بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الإمام الشهيد الحسين ابن الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه [3].

مولده:أصله من المغرب، وسكن البطائح، بقرية يقال لها " أم عبيدة " - بفتح العين - وانضم اليه خلق عظيم من الفقراء، وأحسنوا الاعتقاد فيه [4].

والرفاعي، نسبة إلى رفاعة، رجل من المغرب. والبطائح قرى مجتمعة في وسط الماء، بين واسط والبصرة، مشهورة بالعراق،اختلف في تاريخ مولده والبعض يذهب إلى أنه كان سنة 512هـ.،ويذهب صاحب طبقات الشافعية إلى أن مولده كان سنة 500هـ، أما وفاته فكانت سنة 578هـ [5]

---

[1] انظر هذه الآداب في كتابه الغنية،ج02،ص 269 وما بعدها بتصرّف.

[2] انظر: أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، ص135 بتصرف.

[3] طبقات الأولياء، ابن الملقّن، ج01،ص 93

[4] المصدر نفسه ، الجزء والصفحة نفسهما.

5 انظر : طبقات الشافعية ،ابن قاضي شهبة ،تح: الحافظ عبد العليم خان،ط01، 1407،ج02،ص 05.

شيوخه :يعتبر الرفاعي من طبقات الشافعية ، صحب خاله الشيخ منصور الزاهد وأخذ عنه لأن والده توفّي وهو في بطن أمه ،ومن شيوخه أيضا علي الواسطي والإمام الخرنوبي[1]

طريقته : لم تكتسب الرفاعية شهرة كبيرة كغيرها من الطرق الصوفية الأخرى كالقادرية والشاذلية اللتان عرفتا انتشارا كبيرا في المشرق والمغرب ،ومما يميز طريقته أنه كان متبعا للقرآن والسنة داعيا أتباعه ومريديه إلى التمسك بهما ،وهو المنهج نفسه الذي دعا إليه أساطين التّصوّف.

أصول الطريقة الرفاعية :

تقوم الطريقة الرفاعية على مجموعة من الأصول والقواعد منها :

1-إحكام جانب التوحيد والتحقق بمعانيه كأفراد القدم عن الحدوث وذلك بتنزيه الله سبحانه في ذاته وصفاته عن سمات الحدوث، ونفي وهم الحلول والاتحاد عنه [2].

وهذا الأصل أكد عليه الرفاعي في كتابه البرهان المؤيد ،فيقول في وصيته لمريديه:" أي سادة نزهوا الله عن سمات المحدثين وصفات المخلوقين وطهروا عقائدكم من تفسير معنى الاستواء في حقه تعالى بالاستقرار كاستواء الأجسام على الأجسام المستلزم للحلول تعالى الله عن ذلك وأياكم والقول بالفوقية والسفلية والمكان واليد والعين "[3]،ويؤكد على هذا الأساس في كتاب آخر له فيقول:" فمعرفة الإيمان شهادة اللسان بتوحيد الملك الديان ،والإقرار بصدق ما في القرآن " [4]

أ-الدعوة إلى التمسّك بالكتاب والسنة:

دعا أحمد الرفاعي أتباعه ومريديه إلى التمسّك بالكتاب والسنة ظاهرا وباطنا ،فمن ذلك قوله لمريديه: "أي سادة كونوا مع الشرع في آدابكم كلها ظاهرا وباطنا فإن من كان مع الشرع ظاهرا وباطنا كان الله حظه ونصيبه ومن كان الله حظه ونصيبه كان من أهل مقعد صدق عند مليك مقتدر "5.

ويؤكد الرفاعي على ما أرساه سيد الطائفة الجنيد –رحمه الله- بتأكيده على أن طريق التّصوّف مبني على المتابعة وترك البدعة فيقول في هذا المعنى :"كل الآداب منحصرة في متابعة النبي قولا وفعلا وحالا

---

[1] انظر: أقطاب التصوف الثلاثة، صلاح عزام، مكتبة الاسكندرية ،ط 2001،ص 19-20.

[2] انظر:الإمام أحمد الرفاعي المصلح المجدد،جمال الدين فالح الكيلاني+زياد الصميدعي،المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم ،ط01، 2013،ص 22.

[3] البرهان المؤيد، مطبعة الظاهر مصر، ط01، 1322هـ ،ص 19.

[4] حالة أهل الحقيقة مع الله، احمد الرفاعي ،دار جوامع الكلم، القاهرة ، بدون تاريخ ،ص 08.

[5] البرهان المؤيد، ص 49.

وخلقا فالصوفي آدابه تدل على مقامه زنوا أقواله وأفعاله وأحواله وأخلاقه بميزان الشرع يعلم لديكم ثقل ميزانه وخفته خلق النبي القرآن قال تعالى ما فرطنا في الكتاب من شيء " [1]

ب- تقديم الشريعة على الطريقة والفقه على التّصوّف:

أشرنا فيما سبق إلى ثنائية الشريعة والحقيقة وتكامل كل منهما ،وبينا أن كلام المحققين من أهل التّصوّف وأساطينه يقدمون أحكام الفقه على الطريقة ،وهو الأمر الذي نبه عليه الشيخ زروق الفاسي في قواعده والإمام النورسي والرباني في مكتوبيهما ،وهو ما أرساه الإمام الرفاعي ودعا إليه مريديه وبنى عليه طريقته ،فيقول في هذا المعنى :" أي سادة عظموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيم شأن الأوّلياء والعرفاء فإن الطريق واحد وهؤلاء وراث ظاهر الشريعة وحملة أحكامها الذين يعلمونها الناس وبها يصل الواصلون إلى الله إذ لا فائدة بالسعي والعمل على الطريق المغاير للشرع ولو عبد الله العابد خمسمائة عام بطريقة غير شرعية فعبادته راجعة إليه ووزره عليه ولا يقيم له الله يوم القيامة وزنا وركعتان من فقيه في دينه أفضل عند الله من ألف ركعة من فقير جاهل في دينه" [2] .

وهذا الذي ذكره الرفاعي هو الامر نفسه الذي أكد عليه أساطين التّصوّف من ضرورة تعظيم حرمات الشّرع والوقوف على مقتضى الأمر والنهي.

ج- التحذير من الدجل والشعوذة:

من الأسس التي أقام عليها الرفاعي طريقته نهيه عن الشعوذة والدجل وترك الرقص المحرّم أثناء السماع والتواجد :" أي سادة إياكم والدجالية إياكم والشيطانية إياكم والطرق التي تقود إلى كلا الوصفين" [3] ومن الأسس الأخرى التي يمكن ذكرها أيضا موافقة السلف الصالح ،ولبس لباس التعرية من الدنيا والنفس ،وتحمّل البلاء والاستسلام له ،ولباس الوقار واجتناب الجفاء ،ولباس الرقعة لأنها دليل على الذلّ والانكسار [4].

الذكر والأوراد في الطريقة الرفاعية:

---

[1] المصدر نفسه ،ص 24.

[2] المصدر نفسه، ص 27.

[3] المصدر السابق،ص 48.

[4] الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، عامر النجار،دار المعارف، ط05، بدون تاريخ ،ص 67 بتصرف.

يلتزم السالك أو المريد في الطريقة الرفاعية بالتزام الذكر مع الآداب ،وصورته ذكر كلمة التوحيد "لا إله إلا الله " على قدر المستطاع، والصلاة على حضرة الرسول ﷺ والتزام الخلوة مع المحافظة على الرواتب بعد كلّ صلاة 1،ومن أقول احمد الرفاعي في هذا المجال :"

عليكم أي سادة بذكر الله فإن الذكر مغناطيس الوصل وحبل القرب من ذكر الله طاب بالله ومن طاب بالله وصل إلى الله ذكر الله يثبت في القلب ببركة الصحبة المرء على دين خليله عليكم بنا صحبتنا ترياق مجرّب والبعد عنّا سمّ قاتل " [2]

المطلب الثّالث: الطّريقة الشّاذليّة:

–التعريف:الشاذلية نسبةً إلى أبي الحسن الشّاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبّار المغربي، أبو الحسن، رأس الطائفة الشّاذليّة، صاحب الأوراد المسمّاة حزب الشّاذلي.

–المؤسس: على بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف أبو الحسن الهذلي الشاذلي، بالشين والذال المعجمتين وبينهما ألف، وفي أخرها لام نسبة إلى شاذلة قرية بأفريقيا، الضرير الزاهد، نزيل الاسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية،كان مولده سنة 591هـ، في بلاد "غمارة" بريف المغرب سنة 591 هـ، ونشأ في بني زرويل وتفقّه وتصوّف بتونس، وسكن "شاذلة" قرب تونس، فنسب إليها، توفّي بصحراء عيذاب سنة 591 هـ، من أشهر تلاميذه أبو العبّاس المرسي [3].

شيوخه:

من الذين أخذ عنهم أبو الحسن الشاذلي نجم الدين الأصفهاني وعبد السلام بن مشيش ﷺ وكان من أشهر شيوخه على الإطلاق وعنه أخذ الطريق الصوفي ببلاد المغرب

تلاميذه :من أشهرهم العرف أبو العباس المرسي ﷺ،وقد أفرد ابن عطاء الله السكندري ﷺ كتابا جمع فيه أخبار الشيخ وتلميذه وهو " لطائف المنن " وهو في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن ،وممّا جاء في شأنه:" لم يختلف في قطبانيته ذو قلب مستنير ،ولا عارف بصير ،جاء في هذه الطريق بالعجب العجاب ،وشرع من علم الحقيقة الأطناب ،ووسّع للسالكين الرحاب..." [4].

---

[1] المرجع نفسه،ص 69 بتصرف.

[2] البرهان المؤيد،ص 35.

[3] انظر:: طبقات الشّاذليّة الكبرى،الكوهن ،منشورات علي بيضون ،دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان، ط 02، 2005.، ص 19. وانظر: الطّبقات الكبرى، الشّعراني، مكتبة محمّد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، ط 1315 هـ، ج 02 / 04، وانظر: لطائف المنن، ابن عطاء الله السكندري، تح: عبد الحليم محمود، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ، ص 91.

[4] لطائف المنن، ص 75.

أسس الطريقة الشاذلية:

أورد الشيخ عبد الحليم محمود في كتابه عن الشاذلية الأسس التي تقوم عليها الطريقة نقتصر على ذكر بعضها ،ومنها:

1-**الإخلاص**:وهو على ضربين إخلاص الصادقين بطلب الأجر والثواب وإخلاص الصديقين ومقصودهم الحقّ لا شيء معه وهؤلاء أخلصوا لله العبودية واتّبعوا شريعته فأمدّهم بالأنوار من حضرته[1]

2-التوبة:وهي أوّل مقامات المريد والسالك، لذا نجد في أقوله دعوة المريد إلى هجر المعاصي والذنوب ،ومن علامات هجرها ألا تخطر له على بال ،فحقيقة الهجر نسيان المهجور ،وطريق ذلك المكابدة والمجاهدة [2].

3-الخلوة:وهي في الطريقة تدعيم للتوبة وتنمية للإخلاص مع ملازمة الذكر والمراقبة والتوبة والاستغفار ،ومن ثمراتها تنزّل الرحمة وتحقق المحبّة [3].

4-ترك التّدبير والاختيار :وهو من الأسس المهمّة في الطريقة الشاذلية ،ومعناه أن تجري إرادة العبد مع مراد الله وثمرته الاستسلام لأحكام الله ومقاديره ،وقد ألف ابن عطاء الله كتابا في هذا المعنى "التنوير في إسقاط التدبير" ،ومن أقوال أبي الحسن في هذا :" لا تختر من أمر شيئا واختر أن لا تختار ،وفرّ من ذلك المختار فرارك من كل شيء إلى الله تعالى﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ القصص/68...اسمع وأطع وهذا موضع الفقه الربّاني " [4]

5-الالتزام بالكتاب والسنة وموافقة الشّرع:

دعا الشاذلي إلى التزام الشرع ونبه السالك إلى اتباعه في حال تعارض كشفه مع ما جاء به الشرع فالشرع مقدّم وعليه أن يتمسّك بالكتاب والسنّة لأن الله ضمن له العصمة فيهما ،كما دعا

---

[1] انظر:قضية التصوف المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود ،دار المعارف،مصر،ط03نبدون تاريخ ،ص 99 وما بعدها بتصرف.

[2] انظر: طبقات الشاذلية ، ص 34 بتصرف.

[3] انظر: قضية التصوف المدرسة الشاذلية،ص 103 بتصرف.

[4] طبقات الشاذلية ،ص 31.

إلى الاقتداء بالنبي ﷺوالصحابة والتابعين وهذا هو الطريق الذي يسلم به المريد من الشكوك والظنون والأوهام [1]

الأوراد والأذكار في الطريقة الشاذليّة:

يجعل أبو الحسن الشاذلي للذكر خمسة أصول حتى يُثمر وهي الامتثال للأمر واجتناب النهي وتطهير السرّ وجمع الهمّة والاضطرار ،ومن أوراده احزابه المشهورة عنه وهي حزب النور أو حزب الفتح وحزب البحر وهي مجموعة أوراد كان يواضب عليها أبو الحسن الشاذلي تضمنت آيات من القرآن الكريم ومناجاة من أحاديث النبي ﷺ الصلاة عليه وعلى آله ودعاء وتضرّع وخضوع .وترديد كلمة التوحيد ودعاء الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى [2]

المبحث الخامس: أصول السّير الصّوفي ووسائله

تمهيد: مكانة السير إلى الله تعالى:

يعتبر الطريق إلى الله تعالى من أشرف الطرق ،ولما جعل الحقّ سبحانه وتعالى الاختلاف في خلقه سنة كونية في اللون واللسان والمعتقد والجنس ، كانت مراعاة هذه الاختلافات والتباينات رحمة منه ،وهو ما بينه الله عزوجل في معرض التعليل ،قال تعالى :﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾يوسف /118-119 وبناء على هذه القاعدة كانت الطرق اليه متعددة ومختلفة رحمة منه سبحانه وتعالى ،ولا يلزم من اختلافها اختلاف المقاصد ،لذا يقول الشيخ زروق الفاسي في قواعده في القاعدة رقم 10:"لا يلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقصد،بل قد يكون متحدا مع اختلاف مسالكه،كالعبادة والزهادة والمعرفة

[1] طبقات الشاذلية،ص 23.

[2] انظر هذه الأوراد والأحزاب في : قضية التصوف المدرسة الشاذلية،ص 134 وما بعدها بتصرف.

مسالك لقرب الحق على سبيل الكرامة وكلها متداخلة...من غلب عليه العمل فعابد،أو التَّرك فزاهد، أو النظر لتصريف الحقّ فعارف ،والكلّ صوفية والله أعلم " [1].

يتضح من كلام الشيخ زروق –رحمه الله– خطأ من يتوهم أن التّصوّف حكر على طائفة بعينها ،أو من يجعل التّصوّف مفارقا لأحكام الشريعة مباينا لها ،فانظر كيف كانت العبادة بالتزام الأوامر والأحكام تصوفا وهو ما عبر عنه زروق بقوله " والكلّ صوفية"،وهذا المعنى يؤكده حديث جبريل المشهور في الإسلام والإيمان والإحسان وتفاوت درجات كلّ منها ،ولو كانت واحدة ما فصّل النبي ﷺلذا كانت أعلى مرتبة ﴿ أن تعبد الله كأنك تراه ﴾،وعليه تفاوتت درجات الناس ومراتب إيمانهم من شخص لآخر ،وعليه تعددت طرق سيرهم إلى الحقّ مع اتحاد مقصدهم ووجهتهم ،ويضرب مولانا جلال الدين الرومي مثالا لهذا التعدد فيقول:" وبرغم أن الطرق مختلفة،يظل المقصد واحدا . ألا ترى أن ثمة طرقا كثيرة إلى الكعبة؟– فعند بعضهم الطريق من الروم،وعند بعضهم من الشام،وعند بعضهم من فارس،وعند بعضهم من الصين،وعند بعضهم بطريق البحر من ناحية الهند واليمن.وهكذا إذا أنت تأملت الطّرق وجدت اختلافا عظيما ومباينة لا حدود لها، أما عندما تنظر إلى المقصود فإنك تجدها جميعا متفقة وواحدة. قلوب الجميع متفقة على الكعبة..."[2] .

إن هذه الأمكن التي أشار إليها الرّومي هي رمزية لأعمال العباد ومقاماتهم المختلفة ،فالبعض يدخل على الله من باب الذكر والبعض الآخر من باب القيام والنوافل ،وثالث من باب الصدقات ،ورابع من باب الصبر والتواضع وغيرها من الطرق الأخرى ،أما رمزية الكعبة فهي طلب الحقّ سبحانه وتعالى ،ومادامت قبلة للناس كان المتوجّه إليها متوجّه إلى الحقّ حقيقة ،قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة/115.

لما كان السير إلى الله بهذه المكانة والدرجة رغّب الله عباده بالسير فيه وسلوكه في كتابه في أكثر من موضع ،منها قوله تعالى :﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران/133.وجاء في تفسيرها :" أي أسبابهما من الأعمال الصالحة ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه سارعوا إلى أداء الفرائض ، وعن ابن عباس إلى الإسلام ، وعن أبي العالية إلى الهجرة ، وعن أنس بن مالك إلى التكبيرة الأوّلى ، وعن سعيد بن جبير إلى أداء الطاعات ، وعن

[1] قواعد التصوف ،ص25.

[2] كتاب فيه ما فيه،جلال الدين الرومي،ترجمة:عيسى علي العاكوب،دار الفكر ،دمشق،ط 03، 2009،ص 153.

يمان إلى الصلوات الخمس؛ وعن الضحاك إلى الجهاد ، وعن عكرمة إلى التوبة ، والظاهر العموم ويدخل فيه سائر الأنواع"[1].

وهذه الأعمال والطاعات والقربات كلها دليل ومؤشر على السير في طريق الله عزّ وجل طلبا لمرضاته وتحققا بقوله تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/56.

المطلب الأوّل :ثنائية الشريعة والحقيقة

إن عِلمية التصوّف تجعل له أصولا يقوم عليها وقواعد يرتكز عليها ومصطلحات خاصة متداولة بين أهلها ،من هذا المنطلق كان السير الصوفي لا يتم إلا وفق أصول وقواعد،تمييزا للتصوف الإسلامي عن غيره من الروحانيات الأخرى والتيارات الصّوفيّة الأجنبية كالتّصوّف المسيحي ،والأصول الكبرى للسير الصوفي هي الشريعة والطّريقة والحقيقة [2]، لذا نجد تركيز أرباب الطرق الصّوفيّة وأساطين التّصوّف على ثنائية الشريعة والحقيقة ، وإن كانت الطّريقة هي السير إلى الله كانت ثنائية الشريعة والحقيقة هما الجناحان للسالك أو المريد، فما المراد بكلّ منهما ؟وما هي العلاقة بين هذين الأساسين؟.

1.تعريف الشريعة والحقيقة:

أ– لغة:

تُطلق الشّريعة على مورد الماء، فالعرب تقول: شرّع الإبل إذا أوردها الماء فشربت، لذا سميّت الشريعة شريعة لوضوحها [3]، ومادام مورد الماء شريعة وبه حياة الأجساد فالشّريعة من هذا الوجه كالماء بها حياة الأرواح والقلوب، أمّا الحقيقة في اللّغة فهي ضدُّ المجاز وهي ما يحقُّ على الرّجل أنْ يحميه [4].

---

1 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي،تحقيق: علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية – بيروت ،ط01، 1415هـ ،ج 03،ص 315.

2 الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، ص 113.

3 أُنظر: معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس،تح:عبد السّلام محمّد هارون،دار الفكر،ط 1979 مادّة "شرع"، ج 03 / 262. وانظر: لسان العرب، ابن منظور،دار صادر – بيروت،ط03، 1414هـ ، مادّة "شرع"، ج 08 / 175.

4 أُنظر: أساس البلاغة، الزّمخشري،دار الكتب العلميّة،بيروت،لبنان،ط 01، 1998. مادّة "حقق"، ج 01 / 203. وانظر: مختار الصّحاح، ص 77.

ب- اصطلاحا:

أمّا حدُّ الشّريعة فهو الالتزام بالعبوديّة بالوقوف عند الأمر وتجنّب النّهي، والحقيقة مشاهدة الرّبوبيّة وهما متكاملان، فالشّريعة حقيقة لأنّها وجبت بأمره، والحقيقة شريعة لأنّ المعارف أيضًا وجبت بأمره، ومثال هذا التّكامل حياة الإنسان بالرّوح، فبانفصالها يصير الإنسان جيفةً وتغدو الرّوح لا قيمة لها، ولا يحدث معنى الإنسان إلاّ بالاقتران [1]، من هذا المنطلق لا يمكن السّير إلى الحق إلاّ بهذه المعالم والحدود، وهذا تأكيدٌ لأصالة التّزكيّة وكون التّصوّف ليس دعوة لترك أحكام الشّريعة وإسقاط التّكاليف، ورد أيضا على أهل الظّاهر الذين جعلوا الدّين أحكاما جافّة خالية من أيّ روح فغدت جميع الأعمال صورًا فقط، لذا جمع النّبي ﷺبين أحكام الشّرع (الإسلام) وحقائق الإيمان ومقام الإحسان [2]، وهو الأمر الذي حافظت عليه المدارس الفقهيّة كالمالكيّة، وقد ورد هذا المعنى في إحدى المنظومات:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السّالك [3].

2- العلاقة بين الشريعة والحقيقة:

تُعتبر ثنائيّة الشّريعة والحقيقة من أكبر المباحث المهمّة في الطّريق الصّوفي، ومن أكبر المزالق أيضًا في الدّراسات الصّوفيّة، وما دام علم التّصوّف الإسلامي متميّز عن غيره من التّجارب الرّوحيّة المختلفة، فهو مستمدٌّ من الكتاب والسّنّة، لذا أكّد أساطينه على هذه المسألة وجعلوها أساسا، من ذلك قول إمام الطّائفة الجنيد أنّ هذا العلم مقيّد بالكتاب والسّنّة [4]، وعليه فالسّائر والسّالك لهذا الطّريق لا يمكنه الوصول إلاّ بجناحي الشّريعة والحقيقة على حدٍّ سواء، لذا عُرّفت الطّريقة على أنّها العمل على إصلاح الظّاهر والباطن، فظاهرها إصلاح الجوارح وباطنها إصلاح النّفس[5].

---

[1] أُنظر في ذلك: موسوعة مصطلحات التّصوّف، مادّة طريقة، ص 298 بتصرّف. وانظر أيضًا: ص 496 بتصرّف. وانظر: الرّسالة القشيريّة، ص 118 بتصرّف.

[2] أُنظر: شرح الحكم، زرّوق الفاسي، ص 35.

[3] المرشد المعين على الضّروري من علوم الدّين، عبد الواحد بن عاشر، نشرة بعناية صلاح المجذوب، ط 03، 2012، ص 03.

[4] أُنظر في ذلك: التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف، ص 19 .

[5] أُنظر في ذلك: موسوعة مصطلحات التّصوّف، مادّة طريقة، ص 573.

إنّ الغاية من المسالك التي نصّ عليها حديث جبريل (الإسلام –الإيمان – الإحسان) تحقيق مقصد التوحيد والعبودية لله تعالى، والحقيقة أعلى درجات الإيمان، وهو ما نص عليه قوله ﷺ في بيان درجة الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاه»، والإحسان أعلى الدّرجات والمراتب، وأولى هذه الدّرجات هي الإسلام (الشّريعة) ثُمَّ الإيمان (العقيدة) وانتهاء بالإحسان (الحقيقة)، والتّنقّل بين هذه المراتب هو الطّريقة،

إنّ طريق الله عظيمٌ والسّير إليه خارج حدود الشّرع يجعل السّالك يتخبّط في الضّلال والتّيه ويكون كقوم موسى، فالمنارة هي أحكام الله وحدوده بتحرّي الحلال وترك الحرام، وهذا هو طريق سيّدنا محمّد ﷺ،وهو ما أكدّ عليه أرباب الطرق الصّوفيّة كالجيلاني وأحمد الرفاعي وأبي الحسن الشاذلي وغيرهم .

ويذكر لنا الهجويري العلاقة بين الشريعة والحقيقة فيعتبر "أن ظاهر الفروع ممارسة المعاملة وباطنها تصحيح النية وقيام أحدهما بدون الآخر محال ،فظاهر الحقيقة بلا باطن نفاق وباطن الحقيقة بلا ظاهر زندقة ،وظاهر الشريعة بلا باطن نفَس ،وباطن الشريعة بلا ظاهر هوَس" [1].

لذا يتوجّه الهجويري بالنقد اللاذع لمن ينتمى إلى التّصوّف ويردد مقولة أساءت إلى التّصوّف كثيرا مفادها "أن التّصوّف علم الخِرق وليس علم الورق" وهو قول خطير جدا يؤدي إلى هدم الدين وتقويض أركانه ،بل هو تكذيب لنبوة محمد ﷺ وأرباب التّصوّف وسادته ينكرون هذا القول ويردّونه ،يقول الهجويري منتقدا هؤلاء المدّعين :"وهناك فريق من الملاحدة الذين ينتمون إلى هذه الطّريقة ،يقولون أن علمنا لا يصحّ بشيء ،فترك العلم أتمّ لنا من إثباته ،وهذا من حمقهم وضلالتهم وجهلهم..."[2].

وهؤلاء الملاحدة المشار إليهم هم القائلون بالحلول وسقوط التكاليف ،والتّصوّف وأهله برآء من ذلك ، لذا كان اقتران العلم بالعمل أساسا وقاعدة من قواعد السير إلى الله تعالى ،وفي هذا يقول أبو بكر الوراق :" من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد تزندق ،ومن اكتفى بالفقه دون الورع تفسّق" [3].

أمثلة توضيحية: نذكر بعض الأمثلة التوضيحية لعلاقة الشريعة بالحقيقة كما ذكرها جلال الدّين الرومي حتى تتضح

---

[1] كشف المحجوب،ص 207.

[2] المصدر السابق ،ص 209.

[3] كشف المحجوب،ص 211.

مثال 01:

الشّريعة: بمثابة تعلّم علم الكيمياء.

الطّريقة: تعريض النّحاس للكيمياء.

الحقيقة: تحوّل النّحاس إلى ذهب.

مثال 02:

الشّريعة: تعلّم الطّب.

الطّريقة: التّطبّب والتّداوي.

الحقيقة: إدراك الصّحّة الأبديّة [1].

إن التكامل بين الشريعة والحقيقة أمر ضروري ومقصد عظيم لحفظ الدين وتنظيم حياة الناس بحملهم على التقوى وسوقهم إلى مكارم الأخلاق ،وهو الطريق أيضا إلى تأسيس مجتمع تسوده الفضيلة والعدالة والحكمة والعلم ،وهذا كلّه مستنبط من كتاب الله عز وجل وسيرة النبي ﷺوالسير خارج الطريق الذي رسمه الله ونبيه عمى وتيه وضلال .

3-مزالق الطريق الصوفي:

إن الحديث عن ثنائية الشريعة والحقيقة في السير الصوفي إلى الله تأكيد لقيام التّصوّف الإسلامي على الكتاب والسنة واستمداده من أحوال النبوة ،وردّ في الوقت نفسه على بعض مدّعي التّصوّف الذين يحاولون أن يجعلوا التّصوّف حاكما على غيره ومقدَّما عليه ،أو يرون في التّصوّف وحده كفاية للسالك عن الفقه والعقائد ،لذا نحاول أن نصوغ مجموعة من القواعد التي انتهى إليها بعض المتأخرين كالامام السرهندي الرباني (ت 1034هـ) والإمام بديع الزمان النورسي(ت 1960م) في مكتوبيهما ،وقد كانت محاولتهما رؤية تجديدية للتصوف الإسلامي ،ومن جملة تلك القواعد :

1-ضرورة مراعاة الأوّلويات وترتيبها،فأول ما يجب على المسلم تصحيح العقائد وثانيها العمل بالأحكام الشرعية وثالثها سلوك الطّريقة،فالإيمان ضروري والإسلام ضروري على قول النورسي فلا يدخل أحد الجنة بدون ايمان لكن يمكنه ان يدخلها بدون تصوف[2]

[1] أنظر: مقدّمة المثنوي، ج 05، ص 44.

[2] انظر:مكتوبات السرهندي، تعريب محمد مراد المترلوي،مكتبة الحقيقة،استانبول،ط2002م.
ج1ص268،ومكتوبات النورسي ،ص27

وزمن الرجلين كان زمن الايمان في مواجهة الالحاد والكفر والزندقة.

2–الطّريقة وسيلة وليست غاية،فالطّريقة في خدمة الشريعة وليست منفصلة عنها فالطّريقة مثل الطهارة والشريعة بمثابة الصلاة على قول السرهندي ففي الطّريقة ازالة للنجاسات الحقيقية وفي الحقيقة ازالة النجاسات الحكمية،ومن ثم وجب على المريد والسالك ان يتخذ اذواقه مدخلا لتذوق الفرائض والوقوف على اسرارها،فتفكير السالك في اوراده واهتمامه بها يجعل احكام الشريعة في المرتبة الثّانية،مع العلم ان اداء فريضة واحدة يعدل آلاف الاوراد.[1]

3–ضرورة الشريعة في الابتداء والانتهاء :ما دامت الطّريقة سيرا روحيا الى الحق كانت حاجة السالك الى احكام الشرع في الابتداء والانتهاء–الوصول–وبهذا الاساس ردّ كل من النورسي والسرهندي على دعوى القائلين بسقوط التكاليف الشرعية وحذّرا من هذا المزلق الخطير،وما دامت الشريعة اتيان الاحكام الشرعية والحقيقة هي أداء هاته الاحكام بتذوق وحلاوة وعليه فالبداية متضمنة في النهاية فنتائج الطّريقة هي الاحكام الشرعية،بل يرى النورسي والسرهندي أن أكابر الطّريقة كالشاه النقشبند لم يدعوا سقوط التكاليف ولم يقولوا بها[2].

4–تحكيم العلم والفقه على الطّريقة:مشيخة التّصوّف مهما بلغت لا يمكن ان ترتقي فوق مشيخة العلم فشيخ التعليم هو استاذ الشريعة والطّريقة بخلاف شيخ الخرقة كما يقول السرهندي .

ولذا وجب لزوم ومراعاة الآداب معه،ولهذا نجد النورسي يختار مشيخة العلم وينفي كونه شيخ طريقة بقوله:"انا لست شيخا انا امام كالغزالي والإمام الرباني وعصرنا عصر حفظ الايمان لا حفظ الطّريقة[3]، وعلى هذا الاساس جعل اساطين التّصوّف العلم حاكما على التّصوّف،فالأوّل عام والثّاني خاص،ومن ثم صح انكار الفقيه على الصوفي ولا يصح العكس[4].

1مكتوبات السرهندي ،ج2 ص127 وانظر مكتوبات النورسي، ترجمة:احسان قاسم الصالحي،دار سوزلر للنشر،ط1، 1998م ،ص584 وما بعدها

2 مكتوبات السرهندي ج1،ص163+ ج2،ص44+ص 137.وانظر مكتوبات النورسي،ص583 وما بعدها.

3 مكتوبات السرهندي ج1،ص344،مكتوبات النورسي،ص79+سيرة ذاتية،ص308–524

انظر:قواعد التصوف،الشيخ زروق الفاسي،ص15،وانظر موقف العلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين،مصطفى 4صبري، ج1،ص265.

5–تقييد الطّريقة بأصول الكتاب والسنة:عرفت الطرق الصّوفيّة في عصر المجددين انحرافا كبيرا على تلك المبادئ والأسس التي وضعها المؤسسون فحاول الرجلان ان يردا الطّريقة النقشبندية الى اصولها،فيرى السرهندي والنورسي ان من اصول الطّريقة التزام السنة واجتناب البدعة،بل حتى اكابر الطّريقة كالشاه النقشبند اجتنبوا السماع والرقص في وقت انتسب اليها مدعون اطمأنوا بالجوز والموز وتسلوا بالرقص والسماع كما يرى السرهندي ،كما دعا النورسي الى ضرورة الاسترشاد بتعليمات الامام الغزالي والرباني–السرهندي–وضرورة اتباع سنة النبيﷺالتي تعد اقوى الطرق الموصلة الى الولاية[1]،بل ان من شروط الطريق عند النقشبندية العمل بالسنة النبوية والتمسك بالأحكام الشرعية[2] وهذا الاساس هو ما وضعه اساطين التّصوّف كالإمام الجنيد–رحمه الله–حين قال ان علمنا–التّصوّف–مقيد بالكتاب والسنة .

وسائل السّير الصوفي

إن السير في طريق الله عز وجل على مشرب أهل التّصوّف يحتاج إلى وسائل تعين السالك على قطع عقبات الطريق واجتياز المقامات المختلفة ،ومن أبرز الوسائل المعينة على قطع الطريق،الطريقة نفسها والمريد باعتباره السالك والشيخ المرشد باعتباره الموجّه ،فما حقيقة الطريقة ؟ وما هي واجبات المريد تجاه شيخه ؟ وما هي واجبات الشيخ تجاه المريد ؟ .

1–الطريقة: ورد ذكر الطريقة في القرآن الكريم في ستة مواضع ،تدل خمسة منها على المنهج القويم

والرأي الراجح، منها قوله تعالى ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾طه / 104،وجاء في تفسيرها :" أي أعدلهم رأيا وأرجحهم عقلا وإِذْ ظرف يقولون إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً واحدا وإليه ينتهي العدد في القلة"3 وأكثر استئناس أهل التّصوّف بالموضع الذي ينبيء عن طريقتهم ،وهو قوله تعالى﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ الجن /16. [4] .

وجاء في تفسيرها أن المراد بها طريقة الإسلام [1] ،وكونها طريقة الإسلام معنى ينصرف إلى أحكامه وتشريعاته ،وهو تأكيد على أن التّصوّف قائم على مراعاة التكاليف لا على الدعوة إلى إسقاطها كما يذهب إليه الملاحدة.

---

1 انظر:مكتوبات السرهندي ج1،ص256+مكتوبات النورسي،ص577 وما بعدها.

[2] السعادة الابدية فيما جاءت به النقشبندية،محمد الخاني الخالدي، مكتبة الحقيقة،استانبول،ط 1992م ،ص 08.

[3] روح المعاني،ج08،ص570.

[4] انظر:التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان،ص 293.

والطريقة في اصطلاح القوم – الصوفية- هي السَّير بالسِّير المختصة بالسالكين إلى الله من قطع المنازل والترقي في المقامات [2]،ويُستفاد من المقدمة التي كتبها القشيري لرسالته حول دواعي تأليفها بيان الأصل الذي من أجله أسست الطريقة ،فمن الأسباب التي دعته لذلك ضياع حرمة الشريعة ،وقلة المبالاة بالدين ،وعدم التمييز بين الحلال والحرام، والاستخفاف بالعبادات وغيرها [3]،وكتاب القشيري يعتبر دستورا لأهل التّصوّف ومرجعا مهما أرسى الطريق الصوفي وبين قواعده ،وعليه فالأصل في الطريق حفظ أحكام الشريعة ظاهرا وباطنا .

ويعرّف فريد الدين العطّار (تقريبا 618هـ)الطّريقة فيقول: "... ما هي الطّريقة ؟ إنّها إدراك مخاطر الطّريق والسّير بخفّة لتجنّب المشقّة، والشّبع باليسير وغضُّ الطّرف عن الملك والحشم ..."[4].

فهو يجعل مقصد الطريقة توجيه همة المريد إلى طلب المطالب العالية، وترك الجاه والفضّة والذّهب والمال والاتّصاف بالقناعة، وهذا هو الملك الحقيقي .

يمكن أن نمثّل للطريقة بالمركب الذي يسير فيه السالك أو المريد لقطع مراحل الطريق الصوفي ومقاماته.

2–المريد:يعتبر المريد هو السالك في الطريق الصوفي ،وقد حدّه الكلاباذي في التعرّف بكونه من قال الله في حقه ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الروم /69 ،وهو الذي يريده الله تعالى فيقبل بقلبه ويُحدث فيه لطفا يثير منه الاجتهاد فيه والاقبال عليه والارادة له ثم يكاشفه بالأحوال ،أما المراد فهو الذي يجذبه الحقّ إليه ،وفي المريد أنشد أبو عبد الله البرقي :

مريد صفا منه سرّ الفؤاد فهام به السرّ في كلّ واد

---

1 انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد،ابن عجيبة،تح: أحمد عبد الله القرشي رسلان،منشورات الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة،ط 1419هـ،ج 07، ص 158.

[2] انظر:موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي،رفيق العجم،مكتبة لبنان ناشرون ، ط01، 1999،مادة "طريقة" ،ص 576.

[3] انظر:مقدمة الرسالة القشيرية، ص 08 وما بعدها بتصرف.

4 إلهي نامه، ضمن "مدخل إلى الأدب الصّوفي الفارسي مع دراسة وترجمة للمنظومة الصّوفية إلهي نامه"، ملكة علي التّركي،كلّيّة الآداب، جامعة عين شمس، ط 02، 1998،ص 141.

ففي أي واد يسعى لم يجد له ملجأ غير مولى العباد [1]

وقد تحدّثت كتب القوم عن آداب المريدين وما يجب عليهم في الطريق من الآداب ، لذا يرى القشيري أن أول أدب للمريد أن يكون على قدم الصدق ليصح له البقاء ،فعليه أن يصحح ما بينه وبين الله من عقيدة ويحصّل علم الشريعة إما تحققا أو سؤالا ،مع الأخذ بالأحوط في حال الاختلاف ،وأن يأخذ نفسه بالعزيمة فالرخص للمستضعفين [2]،وهذا المنهج التربوي إنما وضعه القوم لتقوية همّة المريد .

وقد ذكر عبد القادر الجيلاني في كتابه الغنية مجموعة من الآداب التي يجب على المريد الالتزام بها ،فعليه التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمرا ونيا، فيجعلهما جناحيه يطير بهما في الطريق الواصل الى الله عز وجل ،وعليه بالصدق في الاجتهاد حتى يجد الهداية والارشاد [3].

وفي هذه الآداب تأكيد على البعد التربوي الأخلاقي للتصوف الإسلامي وكونه طريقة تزكية وتربية وليس للشعوذة والدروشة والكهانة ،وإضافة لهذه الآداب هناك بعض الواجبات على المريد تجاه شيخه ومنها ترك مخالفته ظاهرا وباطنا ،وترك الاعتراض عليه ،وستر عيوبه مع تأويل أخطائه فإن لم يجد له عذرا استغفر له ودعا له بالتوفيق وعليه ألا يعتقد فيه العصمة أبدا [4].

من خلال كلام المحققين من أهل التّصوّف كالجيلاني تتضح الرؤية الوسط لواجب المريد تجاه شيخه وهو واجب يحتمه الدور التربوي التوجيهي الذي يقوم به ،دون أن نجعل له مقام العصمة فهو بشر يجتهد ويخطىء ويصيب وتابع لسنة النبي ﷺأما ما يذهب إليه بعض الأتباع من تقديس الشيوخ واعتقاد العصمة فيهم فليس من التّصوّف في شيء وهو من إضافات الشذاذ .

3-الشيخ المرشد: أجمع أهل التّصوّف قاطبة متقدّموهم ومتأخّروهم على أن الشيخ في الطريق الصوفي هو الوسيلة التي تمكن المريد أو السالك من قطع المقامات وهو في اصطلاح القوم الكامل العالم بآفات النّفس وأمراضها والعارف بدوائها، ولديه القدرة على شفائها، وهو الذي يردُّ المريد إلى التّوسّط عند الإفراط والميل [5]، ولما كان أعظم السّيرِ السّيرُ في آفاق النّفس كانت معرفة عيوبها وأدوائها

[1] انظر: التعرّف لمذهب أهل التصوّف، ص 107 وما بعدها بتصرف.

[2] الرسالة القشيرية،ص 424 وما بعدها بتصرف.

[3] الغنية لطالبي طريق الحق عزوجل،ج 02،ص 277.

[4] المصدر نفسه،ج02،ص 279.

[5] أُنظر: موسوعة مصطلحات التصوّف الإسلامي، مادّة "شيخ"، ص 515 وما بعدها بتصرّف.

أمرٌ لابدَّ منه، وهذا لا يتحقّق إلاّ برجلٍ خبيرٍ بدروب هذا الطّريق وعارفٍ بمعالمه، وهو ما يتجلّى في الشّيخ المرشد المربي .

ويبين الجيلاني مكانة المشايخ في الطريق فيقول :" والمشايخ هم الطريق إلى الله عزو وجل والأدلاّء عليه ،والباب الذي يدخل منه عليه فلا بد لكل مريد لله عز وجل من شيخ على ما بينا إلا على النذور [1] والشذوذ..."[2].

أما واجبات الشيخ تجاه المريد فتتمثّل في قبوله لوجه الله تعالى مع معاشرته بالنصيحة وملاطفته بعين الشفقة وملاينته بالرفق عند عجزه من احتمال الرياضة ،فيربيه تربية الوالدة لولدها والوالد الشفيق الحكيم اللبيب لولده وغلامه ،فيأخذه بالأسهل ولا يحمله ما لا طاقة له به ،ويأمره بترك متابعة الطبع في جميع اموره واتباع رخص الشرع حتى يخرج بذلك عن قيد الطبع وحكمه ،ثم ينتقل من الرخص الى العزيمة [3].

إن مكانة الشيخ المربي ليس سلب إرادة المريد واختياره بل بالتدرج به في مقامات الكمال بتهذيب نفسه وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل ،وما أشبه دوره بدور الوالد الرحيم الشفوق تجاه فلذة كبده ،لكون الشيخ عارفا بخبايا النفس وأمراضها وعللها ،وهو من جهة أخرى أشبه بالطبيب الحاذق الماهر الذي يقدّم الدواء المناسب للعلة التي تناسبه .

وعلى هذا لا يمكننا أن نتصور في الطريق الصوفي اعتماد المريد على جهده واجتهاده دون صحبة شيخ عارف بخبايا النفس وعالم بأحكام الشريعة ،وهو ما يؤكد عليه القشيري مبينا أن من لم يكن له شيخ فلن يتعلم أبدا ،وفي هذا يقول أبو علي الدقاق أن من خلا طريق من شيخ فحاله كحال الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولكن لن تثمر أبدا ،فكذلك المريد إن لم يكن له شيخ يأخذ منه طريقه نفَسا نفَسا فهو عابد هواه لا يجد نفاذا [4].

المطلب الثّاني: المقامات الصّوفيّة

---

[1] هكذا وردت في كتاب الغنية ،ولعل الصواب الندور من الندرة .

[2] الغنية لطالبي طريق الحق عزوجل،ج02،ص 281.

[3] أنظر هذه الواجبات في الغنية لطالبي طريق الحق عزو وجل، ج02،ص 284 وما بعدها بتصرف.

4 انظر: الرسالة القشيرية، ص 426.

أ–تعريف المقام لغة: جاء في مختار الصحاح :وأما المِقام أو المَقام فقد يكون كلّ واحد منهما بمعنى الإقامة،وقد يكون بمعنى موضع القيام،فإن جُعل من قام يقوم كان المصدر مقَاما بالفتح ،وإن جعل من أقام يقيم كان المصدر مُقاما بالضم [1] ،فالمقام في اللغة ينصرف إلى المكان.

ب–تعريف المقام اصطلاحا: عرّفه القشيري بقوله :"والمقام: ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب بِمَا يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف فمقام كُل أحد موضع إقامته عند ذلك وَمَا هُوَ مشتغل بالرياضة لَهُ وشرطه أَن لا يرتقي من مقام إِلَى مقام آخر مَا لَمْ يستوف أحكام ذَلِكَ المقام فان من لا قناعة لَهُ لا يصح لَهُ التوكل ومن لا توكل لَهُ لا يصح لَهُ التسليم، وَكَذَلِكَ من لا توبة لَهُ لا تصح لَهُ الإنابة ومن لا ورع لَهُ لا يصح لَهُ الزهد" [2]

وعلى هذا المعنى يختلف المقام عن الحال من حيث كونه كسبا لا وهبا ،يحصل للعبد بالمجاهدة والمصابرة والطلب والمقاساة والألم ،ويجعل القشيري له شروطا منها عدم طلب غيره ما لم يستوف المريد المقام الذي هو فيه،لأن كلّ مقام شرط لما بعده ،وقد ورد لفظ المقام في القرآن الكريم في سبعة مواضع ،ومما يقترب من المعنى الصوفي قوله تعالى :﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ الرحمن/46 .

جعل الطوسي معنى المقام مقام العبد بين يديّ الله تعالى فيما يُقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل [3]،وجاء في تفسير قوله تعالى﴿ ولِمَنْ خافَ مقامَ ربه﴾ .

والمعنى قيامه بين يديه للحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المطففين/06، أو: قيامه تعالى على أحواله، من: قام عليه، إذا راقبه، كقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ﴾ الرعد/ 33 . قال مجاهد: هو الرجل يهم بالمعصية، فيذكر الله تعالى، فيدعها من خوفه [4].

وعلى هذا يكون المقام مجاهدة النّفس وحملها على مقتضى الأمر والنّهي .

ج–أنواع المقامات:

---

[1] انظر:مختار الصحاح،ص 262.

[2] الرسالة القشيرية ،ص 91.

[3] اللمع،ص 65.

[4] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ،ج07،ص 279.

لما كان المقام مجاهدة وترقّي كانت درجاته مختلفة ومتباينة ،وكونه مقاما من محلّ الإقامة ،فالسالك أو المريد يتدرّج في المقامات صعودا وهذا يتوقف على الرياضات والمجاهدات المختلفة ،وكلها من أصناف العبادات ،وعليه ليست المقامات على درجة واحدة كما أن أحدها يستلزم الآخر ولا يتم المقام الذي بعده إلا إذا أتى المريد بشروط المقام الذي دونه .

أما عن عددها فهو أمر مختلف فيه بين أهل التّصوّف ،وسنورد هنا ما أورده الطوسي في اللمع وهي سبع مقامات :التوبة –الورع–الزهد–الفقر–الصبر–الرضا–التوكّل [1].

–التوبة: ممّا يلاحظ بالعودة إلى مصادر التّصوّف أن أساطينه متفقون على اعتبار التوبة هي بداية المقامات وهي الأصل لكل ما بعدها،قال القشيري :" فالتوبة أول منزل من منازل السالكين وأول مقام من مقامات الطالبين"2،وقد جعلها الهروي في قسم البدايات [3]،وكونها في البدايات إشارة إلى بداية الطريق عند السالك ،فلا تُقبل أعماله ما لم يتب من ذنوبه ويُقلع عن جميع معاصيه .

أما في حدّها وتعريفها فقد عرّفت بعدّة تعريفات وأقوال كثيرة إلا أن ما يجمع هذه الأقوال كونها:" الرجوع عما كَانَ مذموما فِي الشرع إِلَى مَا هُوَ محمود فِيهِ"[4]،كما جعلوا لها شروطا منها الندم والاعتذار والإقلاع عن الذنب [5]،وقد جعلها أبو حامد الغزالي ضمن ربع المنجيات وافتتح بها هذا القسم وذكر ضرورتها وأهميتها في الطريق الصوفي ،فقال :" فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين ورأس مال الفائزين وأول أقدام المريدين ومفتاح استقامة المائلين ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين وما أجدر بالأوّلاد الإقتداء بالآباء والأجداد ..." [6].

وكون أهل التّصوّف جعلوا التوبة أول المقامات ،ليس اجتهادا وإنما استقراء لنصوص القرآن الكريم وأحوال النبي ﷺ والأنبياء قبله وكذا سير الأعلام والأوّلياء ،أي أن اعتبارها من البدايات بمثابة الإجماع ،ومن نصوص القرآن الكريم في هذا الباب دعوة الحق عباده إلى التوبة قائلا ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ

---

[1] انظر:اللمع ،65 .

[2] الرسالة القشيرية،ص 126.

[3] انظر:منازل السائرين، الهروي،دار الكتب العلمية،بيروت ،لبنان ، ط1988، ص13.

[4] الرسالة القشيرية، ص 127.

[5] انظر : منازل السائرين،ص 13،وانظر: الرسالة القشيرية،ص 127.

[6] إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت،بدون تاريخ،ج04،ص 02.

جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور/31،وجاء في تفسيرها :" إذ لا يكاد يخلو أحدكم من تفريط، وَلاَ سيما في الكف عن الشهوات، وقيل: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية، فإنه، وإن جُبّ بالإسلام، لكن يجب الندم عليه، والعزم على الكف عنه، كلما يُتَذَكَّرُ، ويَخْطِرُ بالبال" [1].

أما من السنّة فالأحاديث كثيرة ،منها قوله ﷺ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ، مَرَّةٍ» [2].

–الورع:وهو المقام الثّاني من مقامات التّصوّف والمراد به أن يتقي السالك الله في كلّ أفعاله ،ويُراعي الله في سلوكاته كلّها ويدرك أن الله مطلّع عليه [3]

قال الطوسي والتوبة تقتضي الورع وهو مقام شريف ،وهو على ثلاث درجات الدرجَة الأوّلى تجنب القبائح لصون النَّفس وتوفير الْحَسَنَات وصيانة الْإِيمَان والدرجة الثّانية حفظ الْحُدُود عِنْد مَا لَا بَأْس بِهِ إبْقَاء على الصيانة وَالتَّقوى وصعودا على الدناءة وتخلصا عَن اقتحام الْحُدُود والدرجة الثّالثة التورع عَن كل دَاعِيَة تَدْعُو إِلَى شتات الْوَقْت والتعلق بالتفرق وعارض يُعَارض حَال الْجمع [4]،وقد حدّ القشيري الورع فقال أنه ترك الشبهات [5]،وفي الحديث الصحيح : «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ » 6

–الزهد:قال الغزالي :" اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ..."[7]،وأورد القشيري اختلاف النَّاس فِي الزهد فمنهم من قَالَ الزهد فِي الحرام، لأن الحلال مباح من قبل اللَّه تَعَالَى ،وَمِنْهُم من قَالَ: الزهد فِي الحرام واجب وَفِي الحلال فضيلة، فَإِن إقلال المال والعبد صابر فِي حاله راض بِمَا قسم اللَّه تَعَالَى لَهُ قانع بِمَا يعطيه أتم من توسعه وتبسطه فِي الدنيا [8]،ويؤكّد الطوسي في اللمع

---

[1] البحر المديد ،ج 04،ص 33.

2 أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي بردة، باب بَابُ اسْتِحْبَابِ الِاسْتِغْفَارِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ،رقم :2702.

[3] التصوف الاسلامي الطريق والرجال،ص 106.

[4] انظر :اللمع،ص 69 وما بعدها ،وانظر :منازل السائرين ،ص 31 وما بعدها.

[5] الرسالة القشيرية،ص 146.

[6] أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير ، بَابُ أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ،رقم:1599.

[7] إحياء علوم الدين،ج 04،ص 2016.

[8] الرسالة القشيرية،ص 151.

اللمع على أهمية هذا المقام معتبرا أن من لم يُحكم أساس هذا المقام فلا يصحّ له شيء بعده لأن محبة الدنيا رأس كلّ خطيئة ولا علاج لهذا الدّاء إلا بالزهد [1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن حركة الزهد الأوّلى مع الصحابة والتابعين كانت بذرة وإرهاصا لنشأة التّصوّف الإسلامي فيما بعد .

–الفقر:الفقر مقام شريف عند أهل التّصوّف ،ونجد في أدبيات الصوفية اطلاق صفة الفقير على المتصوف ،ووجه هذه التسمية لكونه ترك الدنيا وشهواتها ،قال القشيري :" والفقر شعار الأوّلياء , وحلية الأصفياء , واختيار الحق سبحانه لخواصه من الأتقياء والأنبياء والفقراء صفوة اللَّه عَزَّ وَجَلَّ من عباده ومواضع أسراره بَيْنَ خلقه بِهِمْ يصون الخلق وببركاتهم يبسط عَلَيْهِم الرزق" 2،وقد امتدح الله الفقراء في القرآن الكريم ودعا نبيه إلى أن يصبر معهم ويواسيهم ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الكهف /28،ومن السنّة حديث " «اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ » [3]،ومن الإشكالات التي عالجها أساطين التّصوّف المفاضلة بين الغنى والفقر وأيهما أرفع مقاما ،هل هو الغنيّ الشاكر أم الفقير الصّابر ؟،ويورد الغزالي في الإحياء هذا الاختلاف مرجّحا الفقر على الغنى:" اعلم أن الناس قد اختلفوا في تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه ولكنا في هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة ..." [4].

وهذا الترجيح من الغزالي يمثّل وجهة نظر في سياق تاريخي وسياسي واقتصادي معيّن ،نجد خلافه عند بعض أساطين التّصوّف .

خلاصة ما يمكن قوله في هذا المقام أن الفقر يُعتبر عند القوم من الأصول الكبرى والقواعد المهمّة في الطريق الصوفي ،إلا أن حقيقته ليست خلوّ اليد من الدنيا بل بالافتقار إلى الله تعالى عن طريق العجز، فلا يمكننا أن نتصور قيام الدّين وحفظه باعتباره مقصدا من مقاصد الشريعة إلا بوسائل

---

[1] انظر:اللمع،ص 72 بتصرف.

[2] الرسالة القشيرية،ص 303.

[3] أخرجه البخاري عن عمران بن حصين ،باب فضل الفقر ،رقم :6449.

[4] إحياء علوم الدّين، ج 03،ص 264.

لا غنى عنها ببناء المدارس والجامعات والمعاهد وتأليف الكتب ونشرها وصياغة المناهج التعليمية للناشئة والدّفاع عن الأرض والوطن ،وهذا كله لا يتحقق إلا بالمال والاقتصاد القويّ.

–الصبر:عرّف الصبر بعدّة تعريفات منها كونه انتظار الفرج من الله تعالى ،وكونه حبس النَّفس على جزع كامن عَن الشكوى وهو على درجات أولاها الصَّبْر عَن الْمعْصِيَة بمطالعة الْوَعيد إبْقَاء على الْإِيمَان وحذرا من الْجَزَاء وَأحسن مِنْهَا الصَّبْر عَن الْمعْصِيَة حَيَاء،وثانيها الصَّبْر على الطَّاعَة بالمحافظة عَلَيْهَا دواما وبرعايتها إخلاصا وبتحسينها علما وثالثها الصَّبْر فِي الْبلَاء بملاحظة حسن الْجَزَاء وانتظار روح الْفرج وتهوين البلية [1].

وجعل أبو حامد الغزالي هذه المقام مما فارق به الإنسان الْبهائم من حيث قمع الشهوات وقهرها [2]،وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم في عدّة مواضع وامتدح الله الصابرين من عباده ،فمن ذلك قوله تعالى :

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الزمر/10،ومن السنّة أحاديث كثيرة في بيان فضيلة الصبر ودرجته ،منها قوله ﷺ «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لاَ أَدَّخِرْهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» [3].

ووجه اعتبار الصبر من المقامات للمريد في الطريق الصوفي بصبره على الشهوات والمحرّمات ،وهو منهج تربوي سديد لتطهير النفس من الآفات .

–الرضا:أشرنا فيما سبق إلى الخلاف الدّائر حول هذا المقام بين الخراسانيين والعراقيين ،وقد جعله الإمام الطوسي آخر مقامات السالك إلى الله ،وعرّفه فقال:" وهو أن يكون العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل" [4]

أما درجاته فهي ثلاث أولاها رضى الْعَامَّة وَهُوَ الرضى بِاللَّه رَبًّا بسخط عبَادَة مَا دونه ،وثانيها الرضى عَن الله عز وَجل وَبِهَذَا الرضى نطقت آيَات التَّنْزِيل وَهُوَ الرضى عَنهُ فِي كل مَا قضى وَهَذَا من أَوَائِل مسالك أهل الْخُصُوص ،وثالثها الرضى برضى الله فَلَا يرى العَبْد لنَفسِهِ سخطا وَلَا رضى فيبعثه على

[1] انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص65 وانظر:منازل السائرين ،ص 49.

[2] إحياء علوم الدّين ،ج 4،ص 63.

[3] أخرجه البخاري عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ،باب بَابُ الصَّبْرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ،رقم:6470.

[4] اللمع،80.

ترك التحكم وحسم الِاخْتِيَار وَإِسْقَاط التَّمْيِيز وَلَو أَدخل النَّار [1]،وجعل الغزالي الرضا قرين الصبر،فالصبر يورّث الرضا ،والرضا أعلى مقاما منه [2]

ومما يدل على عظم هذا المقام اقتران رضا الله مع رضا عبده في القرآن الكريم ،فقال تعالى:﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ المائدة/119،وجاء في تفسيرها :" حيث رضوا بأحكامه القهرية والتكليفية" [3]،والمراد بالأحكام القهرية جريان قضائه وقدره ،وبالأحكام التكليفية الرضا بما أوجب وأمر ونهى وزجر ،فهو الوقوف عند التكليف بمقام الرّضا.

–التوكّل:أما حدّه عند القوم فهو طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية [4]،والمعنى جعل الجوارح في العبادات والطاعات والأخذ بالأسباب،أما القلب فهو منصرف إلى الحقّ سبحانه وتعالى ،وقد أخبر القرآن بهذه المعاني منها قوله تعالى : :﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾آل عمران/122.وفي موضع آخر اشترط الحقّ التوكّل لصدق الإيمان فقال :﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة /23،وفي الحديث الصحيح أن سبعين ألفا من أمة محمد يدخلون الجنة من غير حساب وذكر أوصافهم ومنها « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» [5].

والأخذ بالتوكّل ليس هجرا للأسباب أو ترك لها ،وفي الحديث قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» [6].

المطلب الثّالث: الأحوال الصّوفيّة

أ– تعريف الحال لغة: الأحوال جمع حال ،من الفعل حال يحول ،والمصدر التحول،وهو التنقّل من موضع لآخر ومنه قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ الكهف /108، أي لا يريدون تحوّلا ،والحوالة تحويل ماء من نهر إلى نهر ،والحائل متغيّر اللون ،وتحوّل عنه زال إلى غيره [1].

---

[1] منازل السائرين،ص 51 بتصرف.

[2] إحياء علوم الدين، ج 04،ص 68.

[3] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد،ج02،ص 94.

[4] اللمع،ص 78.

[5] أخرجه البخاري عن جابر ،بَابُ مَنِ اكْتَوَى أَوْ كَوَى غَيْرَهُ، وَفَضْلِ مَنْ لَمْ يَكْتَوِ،رقم: 5704.

[6] أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك،رقم:2517.

وعليه ينصرف معنى الحال في اللغة إلى التحوّل والتغيّر .

ب– تعريف الحال اصطلاحا: يقترب المعنى الاصطلاحي للحال من المعنى اللغوي من حيث عدم الاستقرار والتحوّل ،لذا يعرّف الحال بكونه معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو بسط أو انزعاج ،فهي مواهب من الحقّ وليست مكاسب بعكس المقامات ،فالحال تأتي من عين الجواد والمقامات تكون ببذل المجهود،وهي كاسمها تحلّ بالقلب وتزول في الوقت ،وفي هذا المعنى أنشد بعضهم:

لو لم تحل ما سميت حالا وكلّ ما حال فقد زالا

انظر إلى الفيء إذا ما انتهى يأخذ في النقض إذا طالا [2]

ويجعل الكلاباذي الأحوال ثمرة للأعمال الصالحة ،فيقول:" اعلم أن علوم الصوفية علوم الأحوال ،والأحوال مواريث الأعمال ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال " [3].

فالحال إشارة إلى الحالة النفسية الشعورية التي يكون عليها الصوفي الصادق بالتزامه الأوامر ووقوفه عند الأمر والنهي ،وليست جنونا أو صرعا يؤدي إلى إسقاط التكاليف أو تلاعبا بالأوامر الإلهية ،لذا يجعلها الطوسي ثمرة للذكر ،وهو تأكيد لنص القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد/28،وينقل الطوسي عن أبي سليمان الداراني قوله :

"إذا صارت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح" ويخرّج هذا القول ممّا يدفع شبهة الدعوة إلى إسقاط التكاليف فيقول : والمعنى إذا استلذّها بقلبه ووجد حلاوتها سقط عنه التعب ووجود الألم الذي كان يجده قبل ذلك "[4].

ج–أنواع الأحوال:

---

1 انظر هذه المعاني في : لسان العرب، ج188/01،وانظر :مختار الصحاح،الرازي،تح: يوسف الشيخ محمد،المكتبة العصرية + الدار النموذجية، بيروت ،صيدا،ط05 ، 1999،ج 84/01 .وانظر أيضا : القاموس المحيط،الفيروز آبادي،تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان،ط 08، 2005، ج989/01

[2] انظر: الرسالة القشيرية،ص 92 بتصرف.

[3] التعرف لمذهب أهل التصوف،ص 58.

[4] انظر:اللمع ،ص 66 بتصرف.

تختلف الأحوال التي ترد على القلب وتختلف درجاتها ومنزلتها ،وحتى عددها بين أهل التّصوّف ،وسنذكر هنا التقسيم الذي ذكره الطوسي في كتابه اللمع ،فقد ذكر عشرة أحوال في كتابه :المراقبة —القرب–المحبة–الخوف–الرجاء–الشوق–الأنس–الطمأنينة–المشاهدة —اليقين.

وهذه الأحوال التي ذكرها نجد ذكرها أيضا فيمن جاء بعده لكن اعتمدنا رأي الطوسي لأن في تقسيمه وضوحا وتفريقا دقيقا بين المقامات والأحوال ،ممّا يدفع التداخل أو التشابه، فانظر كيف جعل الطّوسي المراقبة أول الأحوال ،وقال عنها أنها حال شريف وهي لعبد تيقّن أن الله مطلع على ما في قلبه وضميره، فهو يراقب الخواطر المذمومة التي تشغله عن سيّده، وقد استدلّ الطوسي لهذا الحال من نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية [1]،كما جعل الطوسي اليقين آخر مراتب الأحوال ،وقال عنه: "واليقين أصل جميع الأحوال، وإليه تنتهي جميع الأحوال، وهو آخر الأحوال، وباطن جميع الأحوال، وجميع الأحوال ظاهر اليقين، ونهاية اليقين :تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كلّ شكّ وريب، ونهاية اليقين الاستبشار، وحلاوة المناجاة، وصفاء النظر إلى الله تعالى، بمشاهدة القلوب بحقائق اليقين بإزالة العلل ومعارضة التّهم "[2].

ومن الاشكالات التي تُذكر في هذا السياق التداخل بين بعض المقامات وبعض الأحوال كالرضا ،فهل يُعتبر مقاما أم حالا ؟،وقد عالج هذا التساؤل الإمام القشيري ودفع التعارض الموجود في رسالته ،وملخّص ما قاله أن الرضا مختَلف فيه بين الخراسانيين والعراقيين، فالخراسانيون يعتبرونه مقاما وهو نهاية التوكّل عندهم ،وهو ممّا يُتوصّل إليه بالاكتساب ،أما العراقيون فيجعلونه من جملة الأحوال وليس كسبا بل هو نازلة تنزل على قلب العبد ،ويجمع القشيري بين الرأيين فيجعل بدايته مكتسبة للعبد فهو مقام، أما نهايته فهي من جملة الأحوال [3] ،وعليه ما ذكره عبد القادر الجيلاني في هذا السياق منقول من كلام القشيري.

---

[1] انظر:المصدر نفسه،ص 82 بتصرف.

[2] المصدر السابق، ص 103–104.

[3] انظر:الرسالة القشيرية، ص 228 بتصرف.

خاتمة:

نحمَد الله أن وفقنا لإتمام هذا العمل وهو على نقصه محاولة منا للوقوف على علم له مكانته في الحضارة الإسلامية في بعده التربوي والأخلاقي والحاجة إليه في واقعنا المعاصر حاجة للأخلاق والقيم والإخلاص والعودة إلى الأصول والثوابت والهويّة لغة ودينا وتاريخا وهو ما أردنا بيانه ،وبعد هذه الوقفة نخلص إلى مجموعة من النتائج :

1-عِلمية التصوف الإسلامي وضرورة التعامل الموضوعي والمنهجي مع أقوال أساطينه بالاحتكام إلى القواعد والأصول التي ارتضوها فالحكم عن الشيء فرع عن تصور ماهيته.

2-البعد الأخلاقي في مفهوم التصوّف وهو ما ينبغي أن يُعتمد مع الابتعاد عن الإغراب في العبارات

3- تكامل علوم الإسلام فيما بينها شريعة وعقيدة وتصوفا وكلها داخلة في دائرة الدين كما بينه حديث جبريل ،ولا تتحقق وظيفة أحدها إلا بالاعتماد على الآخر .

4-مجال التصوف هو الوجدانيات والأخلاق وموضوعه تربية النفوس ومداواتها ،وهذا هو الجانب المطلوب استحضاره في التصوف الإسلامي

5-السير الصوفي إلى الله يقوم على مجموعة من الأصول والقواعد والوسائل ،فقواعده الكتاب والسنة ،ووسائله الشيخ والمريد والطريقة

6-للتصوف الإسلامي اتجاهات مختلفة عرفها عبر تطوره منها الزهد والتصوف الأخلاقي والتصوف النظري الممتزج بالمباحث الفلسفية

7-الطرق الصوفية متعددة ومنها القادرية والرفاعية والشاذلية ،وهي متفرعة عن بعضها ورغم تعددها واختلافها إلا أنها متحدة المقصد وهو التربية والتزكية .

8-منهج الطرق الصوفية قائم على متابعة الكتاب والسنة كما أرسى ذلك أساطين الطرق الصوفية ،ولا عبرة بما أضافه الشذاذ والأتباع ولا يؤخذ المؤسس بذنب التابع فلا بد من الفصل المنهجي.

9-معالم الطريق الصوفي تتجلى في المقامات والأحوال ،فالأولى مجاهدات ومكابدات ،والثانية تنزّلات وفيوضات ،ولا يصح شيء من الأحوال ما لم تكن القدم راسخة في الشرع .

10-الفقه حاكم على التصوّف ومقدم عليه ،وعمامة الفقيه مقدّمة على خِرقة التصوّف .

11-لا يَدخل أحد الجنة بدون إيمان لكن يمكنه أن يدخلها بدون طريقة ،فالإيمان كالخبز بينما الطريقة كالفاكهة كما عبّر عن ذلك النورسي – رحمه الله-

12-نقد التصوف مطلب حضاري ومنهجي لتجديد التصوف الإسلامي ،وهو قسمان نقد داخلي من قبل أهله من أساطين التصوّف ونقد خارجي وكلاهما ضروري .

13-التصوّف كغيره من العلوم الأخرى من فقه وتوحيد وكلام وتفسير وحديث فيه جوانب مضيئة وجوانب مُظلمة ، والتجديد يستدعي قراءة نقدية شاملة لأنها جميعا علوم تشرح الإسلام.

-14 الرؤية الموضوعية للشيخ الغزالي –رحمه الله- تنبيء عن قراءة فاحصة ومتأنية للتصوف الإسلامي

15- التصوف الإسلامي ليس خلاصا فرديا بل هو شامل لكل مناحي الحياة سياسة وتعليما واقتصادا وقضاء وفردا واسرة ومجتمعا ودولة ،أي العمل على تزكية الكلّ باستثمار الكلّ .

16-الحياة الروحية في الإسلام هي صمام الأمان لما تعانيه الأمة من صراع ووهن وتناحر وعولمة ،فإحياء القلوب وتغذية العقول طريق لكل خير وصلاح وتقدّم .

17-الإحالة على أمهات مصادر التصوّف حتى يتعرّف الطلبة على مصادر التصوف الإسلامي وأعلامه من خلال التّعامل المباشر معها دون اعتماد أي واسطة معرفيّة من شأنها أن تنقُل صورة خاطئة عن التصوف قد تساهم في إبعاد الهوّة بين المخاطِب والمتلقّي .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الأبعاد الصّوفيّة في الإسلام وتاريخ التصوف، آنا ماري شيمل، ترجمة: محمّد إسماعيل السّيّد + رضا حامد قطب، منشورات الجمل، بغداد ط 01 .
- إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت،بدون تاريخ.

- أساس البلاغة، الزّمخشري،دار الكتب العلميّة،بيروت،لبنان،ط 01، 1998.
- أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته ،عبد الباقي مفتاح ،دار الهدى ،عين مليلة الجزائر،ط 2008.
- أقطاب التصوف الثلاثة، صلاح عزام، مكتبة الاسكندرية ،ط 2001.
- إلهي نامه، ضمن "مدخل إلى الأدب الصّوفي الفارسي مع دراسة وترجمة للمنظومة الصّوفية إلهي نامه"، ملكة علي التّركي،كلّيّة الآداب، جامعة عين شمس، ط 02، 1998.
- الإمام أحمد الرفاعي المصلح المجدد،جمال الدين فالح الكيلاني+زياد الصميدعي،المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم ،ط01، 2013.
- باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين،محمد سعيد رمضان البوطي
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة الحسني، تح: أحمد عبد الله القرشي رسلان، ط حسن عباس زكي، القاهرة، 1419هـ.
- البرهان المؤيد، مطبعة الظاهر مصر، ط01، 1322هـ .
- تاريخ الجزائر الثقافي ،أبو القاسم سعد الله،دار الغرب الإسلامي،ط01، 1998.
- تاريخ التصوف في الإسلام،قاسم غني، ترجمة:صادق نشأت،مكتبة النهضة المصرية ،ط 1970.
- تاريخ الفلسفة الإسلامية ،هنري كوربان،ترجمة :نصير مروة+حسن قبيسي ،عويدات للنشر ،بيروت ،لبنان، ط 02، 1998.
- التحرير والتنوير،الطاهر بن عاشور،الدار التونسية للنشر – تونس،ط 1984.
- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة،أبو الريحان البيروني، عالم الكتب، بيروت، ط02، 1403.
- التصوف الثورة الروحية في الإسلام، أبو العلا عفيفي ،دار الشعب للطباعة والنشر،بيروت،بدون تاريخ .
- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق،زكي مبارك،ط 2012.
- التصوف الاسلامي الطريق والرجال، فيصل بدير عون،مكتبة سعيد رأفت،جامعة عين شمس، ط1983.

- التصوف الاسلامي من الرمز الى العرفان،محمد بن بريكة،دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، ط01، 2006.
- التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف، الكلاباذي، تصحيح: آرثر جون آربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ.
- تلبيس إبليس،ابن الجوزي،دار الفكر للطباعة والنشر،بيروت،لبنان،ط01، 2001.
- جغرافية الباز الأشهب قراءة ثانية في سيرته، جمال الدين فالح الكيلاني المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم ، ط04، 2014
- جامع كرامات الأولياء، النّبهاني، تح: إبراهيم عطوة عوض، مركز أهل السّنّة، غجرات، الهند، ط 01، 2001.
- الجانب العاطفي من الإسلام ،محمد الغزالي ،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،ط 03، 2005.
- حالة أهل الحقيقة مع الله، احمد الرفاعي ،دار جوامع الكلم، القاهرة ، بدون تاريخ .
- خلق المسلم،محمد الغزالي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط 01، 1987.
- ربانية لا رهبانية، أبو الحسن الندوي،دار الفتح للطباعة والنشر ،بيروت ،بدون تاريخ.
- الرسالة القشيرية،القشيري،ص288.+التعرف لمذهب اهل التصوف،الكلاباذي.
- ركائز الإيمان بين العقل والقلب ،محمد الغزالي،دار الشروق ،بدون تاريخ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي،تحقيق: علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية – بيروت ،ط01، 1415هـ .
- روضات الجنّات في أحوال العلماء والسّادات، الخوانساري، الدّار الإسلاميّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط 01، 1991.
- السعادة الابدية فيما جاءت به النقشبندية،محمد الخاني الخالدي.
- شرح الحكم العطائية، زروق الفاسي ،تحقيق:عبد الحليم محمود،دار الشعب،القاهرة،ط 1985.
- الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة ،عبد الرزاق الكيالي،دار القلم ،دمشق،ط01، 1994.
- صفة الصفوة، ابن الجوزي ،تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر،ط 2000م.

- الصوفية في الاسلام ، رينولد نيكلسون ترجمة:نورالدين شريبة،مكتبة الخانجي بالقاهرة،ط02، 2002.
- طبقات الأولياء، ابن الملقن ،تحقيق:نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجي، بالقاهرة،ط 02، 1994.
- الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها ،صلاح مؤيد العقبي،دار البراق،بيروت ،لبنان،ط2002.
- طبقات الشّاذليّة الكبرى،الكوهن ،منشورات علي بيضون ،دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان، ط 02، 2005.
- طبقات الشافعية ،ابن قاضي شهبة ،تح: الحافظ عبد العليم خان،ط01، 1407.
- الطّبقات الكبرى، الشّعراني، مكتبة محمّد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، ط 1315 هـ.
- الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، عامر النجار،دار المعارف، ط05، بدون تاريخ .
- الغنية لطالبي طريق الحق عزوجل، عبد القادر الجيلاني ،منشورات محمد علي بيضون ،دار الكتب العلمية،بيروت ،لبنان ،ط 01، 1997.
- الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبد القادر الجيلاني، دار الريان للتراث، الجيزة، مصر ،بدون تاريخ.
- فتوح الغيب،عبد القادر الجيلاني،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده،مصر،ط 02، 1973.
- القاموس المحيط،الفيروز آبادي،تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان،ط 08، 2005.
- القدسية في التصوف ،عبد الرحمن الأخضري ،مطبوع ضمن الروض الباسم في ترجمة سيدي محمد بن أبي القاسم، طبعة حجرية.
- قضية التصوف،المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود دار المعارف،مصر، ط03، بدون تاريخ.
-
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام،مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ط 1991،ج 02، ص 212.

- قواعد التصوف،زروق الفاسي،تح:عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية،بيروت ،لبنان،ط02، 2005.
- كشف المحجوب، للهجويري، دراسة وترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل، مكتبة الاسكندرية، ط 1974.
- الكواكب الدّريّة في تراجم السّادة الصّوفيّة، المنّاوي، تح: عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهريّة للتّراث، بدون تاريخ .
- كتاب فيه ما فيه،جلال الدين الرومي،ترجمة:عيسى علي العاكوب،دار الفكر ،دمشق،ط 03، 2009.
- لسان العرب، ابن منظور،دار صادر – بيروت،ط03، 1414هـ .
- لطائف المنن، ابن عطاء الله السكندري، تح: عبد الحليم محمود، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ.
- اللّمع، أبو نصر السّرّاج الطّوسي، تح: عبد الحليم محمود + طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر + مكتبة المثنى ببغداد، ط 1960.
- المثنوي، جلال الدّين الرّومي، ترجمة: الدّسوقي شتّا، المكتبة العربيّة الشّرقيّة، ط 1996.
- مجمّع الزّوائد ومنبع الفوائد، ابن حجر الهيثمي، مكتبة القدسي، القاهرة، ط 1994.
- المحاور الخمسة في القرآن الكريم ،محمد الغزالي،دار الشروق ،بدون تاريخ.
- مختار الصحاح،الرازي،تح: يوسف الشيخ محمد،المكتبة العصرية + الدار النموذجية، بيروت ،صيدا،ط05 ، 1999.
- مدخل إلى التصوف الإسلامي،أبو الوفا الغنيمي التفتزاني،دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط03، بدون تاريخ.
- مدخل إلى التصوف الفلسفي دراسة سيكو ميتا فيزيقية، إبراهيم إبراهيم محمد ياسين ،منتدى سور الأزبكية،مصر، ط 2002م .
- المرشد المعين على الضّروري من علوم الدّين، عبد الواحد بن عاشر، نشرة بعناية صلاح المجذوب، ط 03، 2012.
- مسند احمد ،تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون،مؤسسة الرسالة،ط 01، 2001.

- مطبوعة علم التصوف،الدكتور عبد الوهاب فرحات، جامعة الأمير عبد القادر، السنة الجامعية 2009/2008.
- معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس،تح:عبد السّلام محمّد هارون،دار الفكر،ط 1979 .
- مقدّمة ابن خلدون، ابن خلدون، تح: عبد الله محمّد الدّويش، دار البلخي+ مكتبة الهداية، دمشق، ط 01 ،2004، ج 02.
- المكتوبات،السرهندي،تعريب محمد مراد المترلوي،مكتبة الحقيقة،استانبول،ط2002م
- المكتوبات،النورسي،ترجمة:احسان قاسم الصالحي،دار سوزلر للنشر،ط1، 1998م .
- منازل السائرين، الهروي،دار الكتب العلمية،بيروت ،لبنان ، ط1988.
- منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية ،عبد الكريم الفكون،تحقيق:أبو القاسم سعد الله،دار الغرب الإسلامي،ط01، 1987.
- المنقذ من الضّلال والموصل إلى ذي العزّة والجلال، أبو حامد الغزالي، قدم له: علي ملحم، دار ومكتبة الهلال، ط1 ،1993.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت ط02، 1992.
- موسوعة مصطلحات التّصوّف الإسلامي، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 01، 1999 م.
- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار،ط دار المعارف،مصر، بدون تاريخ.
- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ،ماجد عرسان الكيلاني ،دار القلم ،الامارات العربية المتحدة، ط03، 2002.